

الفصل الثاني

كتابات ابن أبي طي عن تاريخ حلب

نتناول في هذا الفصل دراسة كتابات ابن أبي طي عن تاريخ حلب في فترة تعدد من أكثر الفترات اضطراباً في تاريخها السياسي، حيث تعاقب على حكمها العديد من الملوك في خلال فترة وجيزة (٥٠٨ - ٥٢٠ هـ / ١١١٤ - ١١٢٦ م)، في خلال السنوات الأخيرة من الحكم السلجوقي فيها (٥٠٨ - ٥١٢ هـ / ١١١٤ - ١١١٨)، وفي فترة الحكم الأرتقي بها (٥١٢ - ٥١٨ هـ / ١١١٨ - ١١٢٤ م)، وفترة ولاية أمير الموصل آق سنقر البرسقي القصيرة لها حتى مقتله في عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م، كما شهدت أيضاً حلب في شهر شعبان عام ٥١٨ هـ / أكتوبر عام ١١٢٤ أقوى حصار تعرضت له من عدة قوى صليبية وإسلامية، وقد تميزت كتابات ابن أبي طي عن معظم هذه الأحداث وانفرد بكثير منها، كما كشف خلال إحدى رواياته عن العديد من المصادر التي رجع إليها.

كما سنعرض لابن أبي طي روايات أخرى هامة تتعلق بالآثار الدينية في حلب، وعلى الأخص المشاهد الشيعية بها، وأيضاً كتاباته عن موقف الشيعة الإمامية من المذاهب والفرق الأخرى في حلب، وهي تعد من أهم كتاباته على الإطلاق، لأنه كشف خلالها العلاقة بين الشيعة الإمامية وأهل السنة، وأيضاً علاقتهم مع الشيعة الإسماعيلية، وأتاح لنا ذلك فهم كتاباته في موضوعات أخرى .

وقد أمدنا المؤرخ ابن الفرات في كتابه «تاريخ الدول والملوك» بمعظم كتابات ابن أبي طي في هذا الفصل، كما أفادتنا النصوص التي حفظها له المؤرخ «عز الدين بن شداد» في كتابه «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة»، في كتابة الآثار الدينية في حلب، وأفادتنا أيضاً كتابات المؤرخ ابن الشحنة في كتابيه «نزهة النواظر» و «الدر المنتخب» في هذا الموضوع، هذا فضلاً عن بعض المراجع الحديثة الخاصة بتاريخ حلب، والتي أشارت

إلى رواية ابن أبي طي عن هذه الآثار.

أولا - التاريخ السياسي:

تاريخ حلب في نهاية الحكم السلجوقي (٥٠٨ - ٥١٢ هـ / ١١١٤ - ١١١٨):

حلب في عهد ألب أرسلان بن رضوان بن تتش:

خلف الملك «ألب أرسلان»^(١) والده الملك «رضوان بن تتش» (٤٨٨ - ٥٠٧ هـ

/ ١٠٩٥ - ١١١٣ م) في ولاية حلب، ولم تستمر ولايته لها سوى عام واحد (٥٠٧ - ٥٠٨ هـ / ١١١٣ - ١١١٤ م)، ووصلنا من كتابات ابن أبي طي أحداث هامة انفرد بها عن الأشهر الأخيرة من عهده في عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م، أوضح من خلالها تفاصيل المخطط الذي وضعه الخادم «لؤلؤ اليايا» للتخلص من ألب أرسلان لكي ينفرد بحكم حلب، وقدم ابن أبي طي لهذه الأحداث بعرض نبذة عن لؤلؤ الخادم، تضمنت ألقابه وتطور أحواله قبل بلوغه مكانة كبيرة في عهد ألب أرسلان، وكان ابن العديم قد ذكر عنه انه كان خادما «لتاج الرؤساء بن الخلال»^(٢) قبل وصوله إلى حلب^(٣).

(١) هو تاج الدولة ألب أرسلان بن رضوان بن تتش: توفي حلب عقب وفاة والده في جمادى الآخرة عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م، وكان يبلغ السادسة عشر من عمره، وعرف بالآخرس لأنه كان في كلامه تميمه، وقيل عنه أنه كان متهورا، قليل العقل، قبض علي جماعة من خواص أبيه، فقتل بعضا وصادر أموال البعض الآخر، وساءت سيرته في حلب إلى الحد الذي لا يرجي له صلاح ولا إصلاح، وقتله مدير دولته لؤلؤ اليايا في ربيع الآخر عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م. (ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٠١، ٣٠٤؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ١٦٤، ١٦٧، ١٧٢).

(٢) هو تاج الرؤساء أبا منصور بن الخلال الرحبي: عمل مع قسيم الدولة آق سنقر عند ولايته حلب عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م، وذكر ابن العديم أنه: «ولي علي جمع المال بحلب في الديوان» (زبدة الحلب، ج ٢، ص ١٠٣).

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٧ - ١٦٨.

قال ابن أبي طي: «كان الأمير محيى الدين شرف الملوك نصير أمير المؤمنين أبو العز لؤلؤ الملكي المسمى يايا الخادم خادما لتاج الرؤسا بن الخلال، وزير الأمير قسيم الدولة أقسنقر^(١) الحاجب الذى كان صاحب حلب، فلما قتل أقسنقر أخذ الملك تاج الدولة تتش^(٢) صاحب دمشق لؤلؤ المذكور، وظهر منه سداد تقدم به، وكان شجاعا باسلا، سديد الأرا، وتنقلت به الأحوال إلى أن صار أتابك عسكر الملك تاج الملوك ألب أرسلان الأخرس بن الملك فخر الملوك رضوان بن الملك تاج الدولة تتش صاحب حلب ومدبر أمره، واستولى على حلب في محرم من هذه السنة (٥٠٨ هـ)»^(٣).

ثم تناول ابن أبي طي تفاصيل المخطط الذى وضعه لؤلؤ الخادم لإحكام سيطرته على قلعة حلب، والتغيرات الإدارية التى قام بها لتسهيل مهمته فى التخلص من الملك ألب أرسلان، وانفرد بمعظم هذه التفاصيل، وكان ابن العديم قد أشار إلى أحد هذه التغيرات^(٤)، وتناول مقتل ألب أرسلان بإيجاز^(٥).

قال ابن أبي طي: «دبر فى الإيقاع بالملك ألب أرسلان، وواطأه على ذلك جماعة من الجند والأتراك، فدخل ألب أرسلان و.... حتى صار أمر القلعة إليه وصارت المفاتيح لا تبيت إلا عنده، ثم قبض على الوزير «ابن السرطان»^(٦)، وأعاد الوزارة إلى «ابن الموصول»^(٧).

(١) هو قسيم الدولة آق سنقر التركي : تولى حلب فى عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م، وظل واليا عليها حتى قتله تاج الدولة تتش فى عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م (المصدر نفسه، ص ١٠٣، ١١٢).

(٢) هو تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان : تولى دمشق فى عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م، وظل واليا عليها حتى قتل فى صفر عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م. (ابن القلانسي : تاريخ دمشق، ص ١٨٣، ٢١٢).

(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، م ١، ج ١، ورقة ٨٢ (نقل المعنى العام لنص ابن أبي طي).

(٤) وهى قيام لؤلؤ الخادم بإعادة «ابن الموصول» إلى الوزارة، ولم يشر إلى قيامه بعزل الوزير ابن السرطان، وإعادة ابن بديع إلى رئاسة حلب. (زبدة الحلب، ج ٢، ص ١٧١).

(٥) المصدر نفسه، ص ١٧٢.

(٦) هو أبو الرجاء سعد الله بن هبة الله بن السرطان الرحبي : تولى الوزارة فى حلب عدة مرات، فيظهر من نص ابن أبي طي أنه تولاها عقب عزل الملك ألب أرسلان الوزير ابن الموصول فى عام ٥٠٧ هـ /

والديوان، وقرر معه الإيقاع بالملك ألب أرسلان، فلما كان في آخر شهر ربيع الآخر من هذه السنة، شرب الملك ألب أرسلان ودخل إلى داره، فقام لؤلؤ هو وجماعة من الذين واطأوه، ودخلوا عليه وهو نائم في داره بالقلعة فقتلوه وقتلوا زوجته وأكثر جواريه وخدامه^(٢).

وعرض ابن أبي طي بعد ذلك تفاصيل الإجراءات التي اتبعها لؤلؤ الخادم مع كبار الأمراء والأجناد في قلعة حلب وخارجها حتى تمكن من بسط سيطرته تماما عليها، وانفرد أيضا بكل هذه التفاصيل الهامة، فقال: «ثم خرج لؤلؤ إلى مركز القلعة ودعى

القلعيين واحدا واحدا، واستحلفهم لنفسه، فمن يأبى قتله حتى قتل منهم سبعة عشر رجلا، ولما تكامل سجلات جميع القلعيين أمر برباب القلعة، ففتح ودعى الرئيس «ابن بديع»^(٣) رئيس حلب، فلما حصل عنده أراه رأس الملك ألب أرسلان بن الملك رضوان، وأمره أن يحلف فحلف ودعى بكبراء البلد ومقدمى العسكر واحدا واحدا حتى أخذ عليهم جميعهم الأيمان، وأصبح هو مالك القلعة، ودفن الملك ألب أرسلان، ولم ينتطح فيه

١١١٣ م ثم عزله منها لؤلؤ الخادم في ذلك العام، ثم ولاه الوزارة مرة أخرى في عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م، ثم عزله بعد مدة، وتولى الوزارة أيضا في عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م (المصدر نفسه، ص ١٧٣، ٢٠٣، ٢٠٩).

(١) هو أبو الفضل هبة الله بن عبد القاهر بن الموصل : تولى الوزارة للملك رضوان بن تتش في عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م، وظل وزيرا له حتى وفاته في عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م، ثم تولى الوزارة لابنه الملك ألب أرسلان، وبعد عدة أشهر عزله من الوزارة وقبض عليه، ولما استولى لؤلؤ الخادم علي زمام الأمور في حلب أعاده للوزارة، ثم قبض عليه في عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م، ثم أعاده مرة أخرى للوزارة، وتوفي ابن الموصل في حلب في صفر عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م. (المصدر نفسه، ص ١٣٨، ١٧٠، ٢٠٣).

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ٨٢.

(٣) صاعد بن بديع : ولاه الملك رضوان بن تتش رئاسة حلب في عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م، ولما تولى الملك ألب أرسلان حلب في عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م قبض عليه وصادره، ثم أطلقه فاتجه إلى قلعة جعبر، ثم قتل علي يد اثنين من الباطنية في عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م. (ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٢، ص ١٣٩، ١٤١، ١٧٠، ١٨٦).

عتران»^(١).

وكان مقتل الملك ألب أرسلان بعد عام واحد من ولايته إشارة هامة إلى بدء دخول حلب في مرحلة جديدة سادت فيها الاضطرابات إلى حد أن اختلف المؤرخون حول ولاية الأمور فيها، ومن ذلك اختلفوا حول نسبة الملك الذي خلف ألب أرسلان في حلب، فبينما ذكر العظمى وابن الأثير وابن العديم أن لؤلؤ الخادم نصب بعده أخا صغيرا له، وهو «سلطان شاه بن الملك رضوان»، وكان يبلغ من العمر ست سنوات، ذكر ابن القلانسي وابن أبي طي أنه كان ابنا للملك ألب أرسلان وليس أخا له، كما اختلف ابن أبي طي مع العظمى وابن الأثير وابن العديم حول توقيت ولاية سلطان شاه حلب، فبينما ذكروا أنه تولى حلب عقب مقتل ألب أرسلان في عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م، ذكر ابن أبي طي أنه تولاها في ذي الحجة عام ٥١٠ هـ / ١١١٧ م. أما ابن القلانسي فلم يحدد تاريخ ولايته حلب، واتفق هؤلاء المؤرخون على قيام لؤلؤ الخادم بتدبير أمور حلب بعد وفاة ألب أرسلان في عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م حتى مقتله في عام ٥١٠ هـ / ١١١٦ م^(٢).

حلب في عهد لؤلؤ الخادم:

لم نجد من كتابات ابن أبي طي عن عهده سوى روايتين، تناول في الأولى علاقة لؤلؤ الخادم ووالى عزاز. أما الرواية الثانية فعرض فيها أسباب قتل لؤلؤ الخادم في عام ٥١٠ هـ / ١١١٦ م.

علاقة لؤلؤ الخادم ووالى عزاز:

تعرضت بعض بلاد الشام لزلازل قوى وقع في شهر جمادى الآخرة عام ٥٠٨ هـ /

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ١ ، ج ١ ، ورقة ٨٢ .

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣١٥ ؛ العظمى : تاريخه ، ص ٣٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ،

ص ٢٧١ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٢ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، م ١ ، ج ١ ،

١ ، ورقة ١٠٣ (رواية ابن أبي طي) .

١١١٤ م^(١)، وكان «حصن عزاز»^(٢)، من المناطق التي دمرت بعد الزلزال، وقد عرض ابن أبي طي تفاصيل هذا الموضوع ضمن أحداث عام ٥٠٩ هـ، وتناول فضلاً عن خبر الزلزال العلاقة بين لؤلؤ الخادم ووالى الحصن قبل وبعد وقوع الزلزال، وانفرد بكل هذه التفاصيل، وكان ابن العديم قد أشار للعلاقة بينهما بإيجاز^(٣). قال ابن أبي طي: «وفي هذه السنة جات زلزلة خربت عزاز، وكان واليها رجل يقال له المرعراوى، وكان لؤلؤ قد اصطنعه ونوه باسمه وولاة قلعة عزاز، فلما حصل بها حدثه نفسه بالعصيان والاستبداد بالملك، وعجز لؤلؤ عنه، فسكت عما بلغه ورجع إلى الله تعالى، فبجاءت زلزلة هدمت عزاز، فخرج الوالى منها ... به قوم من أصحاب لؤلؤ ققبضوه وجاءوا به إليه، فواقفه على قبيح فعلته، ثم قتله بعد ذلك، وقد ذكر المرعراوى «..... البالى» فى القصيدة التى مدح فيها لؤلؤ، وفيها «يقول»^(٤)»^(٥).

أسباب قتل لؤلؤ الخادم:

أثار هروب لؤلؤ الخادم من حلب ومقتله بعد ذلك فى ذى الحجة عام ٥١٠ هـ / ١١١٧ م جدلاً بين كثير من المؤرخين، وأوردوا فى ذلك العديد من الآراء^(٦)، وذكر ابن أبي طي أيضاً ثلاثة آراء انفرد بهم، وأفرد للرأى الأول مساحة كبيرة، وهذا يشير إلى اقتناعه

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٣٠٥؛ العظيمي: المصدر السابق، ص ٣٢؛ ابن الأثير:

المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٧١؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٣.

(٢) عَزَّازُ: بليدة فى شمال حلب، وبها قلعة تعد من أمنع القلاع وأحصنها، ولهذا تعد من أهم الثغور

الإسلامية. (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٩٩؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٣٧؛

ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٨).

(٣) انظر: زبدة الحلب، ج ٢، ص ١٧٣.

(٤) أورد ابن أبي طي أربعة أبيات من الشعر تعذر علينا قراءتهم.

(٥) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ٩١.

(٦) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٣١٥؛ العظيمي: المصدر السابق، ص ٣٣؛ ابن الأثير:

المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٧٩؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٧-١٧٨.

به، وعلى العكس من ذلك ذكر الرايين التاليين فى عدة أسطر، وأوردهما بصيغة التضعيف، حيث بدأ روايته بكلمة وقيل، مما يوضح انه ذكرهما فقط لاستيفاء الموضوع.

أوضح ابن أبى طى فى الرأى الأول أن اكتشاف لؤلؤ الخادم ما كان يتمتع به رئيس حلب «أبو البركات بن بديع» من نفوذ فى حلب، كان سببا لدخوله معه فى صراع انتهى بهزيمة لؤلؤ ثم فراره من حلب وقتله بعد ذلك، وهذا الرأى انفرد به ابن أبى طى وأورد فيه الكثير من التفاصيل الهامة. وبدأ كتاباته بعرض مراسم احتفال رئيس حلب بختان أولاده، وأوضح أن هذا الاحتفال أظهر لؤلؤ الخادم مدى ما كان يتمتع به الرئيس من نفوذ فى حلب إلى حد أقلقه، ولهذا أخذ يستعد لقمعه، فقال: «فى صفر منها (٥١٠ هـ) ختن الرئيس «أبو البركات بن بديع»^(١) رئيس حلب أولاده، وألبس الحلبيين الكراوندات، و«الجواشن»^(٢)، و«الزرديات»^(٣)، والخوذ وأعطاهم السيوف و«الدق»^(٤)، وزق أولاده فى جميع حلب، وأظهر تجملا عظيما، وعبر تحت القلعة فأطلع الأمير لؤلؤ صاحب حلب ورأى ذلك فارتاع له وبادر إلى غلق باب القلعة وقال لأصحابه يكون لرئيس حلب هذا السلاح وهذا التجميل والناس له يطيعون هذه الطاعة وكيف أمنه على حلب أو على نفسه، وأخذ فى أعمال الحيلة على الإيقاع بالرئيس»^(٥).

(١) أبو البركات بن بديع : أورد ابن أبى طي خبر ولايته رئاسة حلب فى عهد لؤلؤ الخادم، ولم يذكره ابن العديم، ولا ندرى إن كان يرتبط بصلة بالرئيس «صاعد بن بديع» الذى أكد ابن العديم أنه خرج فى عهد ألب أرسلان بن الملك رضوان من حلب إلى قلعة جعبر. (زبدة الحلب، ج ٢، ص ١٧٠).

(٢) الجواشن : جمع جوشن وهي مثل الزرد يلبس على الظهر، والفرق بينهما أن الزرد يكون من حلقة واحدة، والجواشن يكون حلقة حلقة يتداخل فيها صفائح رقيقة من التنك. (القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٣ هامش (١)؛ البقلى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٩٣-٩٤).

(٣) الزرديات : جمع زرد وهو الدرع. (ابن منظور : لسن العرب، ج ٦، ص ٣٤؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١).

(٤) الدرق : آلة لانتقاء قذائف العدو، وتكون من الجلد، وخاصة جلد البقر أو «اللمط» وهو حيوان يعمر فى الصحارى. (القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٤٣؛ البقلى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١٣٥).

(٥) ابن الفرات : المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ١٠٣.

ثم عرض ابن أبي طي موقف كل من رئيس حلب ولؤلؤ الخادم بعد علمهما بحقيقة نوايا كل منهما، وأوضح أن رئيس حلب كان في البداية متخوفاً من مواجهته، ثم ما لبث

أن غير رأيه وزحف إلى قلعة حلب وحاصره بها، قال: «وبلغت مقاته الرئيس فأحترز منه وامتنع من الخدمة وأظهر التمارض، فأرسل إليه الأمير لؤلؤ في الحضور فامتنع واعتذر بالمرض، وتواترت إليه الرسل وألح في طلبه، فكاشفه الرئيس وامتنع من الحضور إليه وقام على رسله وأخرق لهم، وتضاعف الحال حتى جمع الرئيس الحلبيين إليه، ونهض الأمير لؤلؤ وقاتله الرئيس، وهزم رجاله وقتل أبطاله، وكبس دور الأمرا واعتقلهم ونهب أموالهم، وزحف إلى القلعة وقاتلها أشد قتال مدة عشرة أيام»^(١).

وأورد ابن أبي طي بعد ذلك رواية هامة انفرد فيها بتحديد تاريخ ولاية «سلطان شاه» أمر حلب، فذكر أنه خلال الصراع بين رئيس حلب ولؤلؤ الخادم نصبه رئيس حلب سلطاناً، وأخذ في تشجيع الجنود على الأخذ بثأر الملك ألب أرسلان الذي قتله لؤلؤ الخادم قبل عامين من تلك الأحداث، وساهم ذلك في هزيمة لؤلؤ وهربه من حلب بعد ذلك

قال ابن أبي طي: «ثم إن الرئيس أرسل إلى الملك «سلطان شاه محمد بن الملك ألب أرسلان ابن الملك رضوان» ونصبه سلطاناً، وجمع عليه جماعة من..... له من الأجناد، وعظم عليهم فعلة الأمير لؤلؤ، وكيف أقدم على قتل سيده الملك ألب أرسلان، وسألهم المعاضدة له حتى يأخذ بثأر الملك أرسلان، فأجابوه إلى مراده، ولما ضاق الخناق بالأمير لؤلؤ استتاب في القلعة بعض أصحابه، وخرج في جماعة من غلمانته في الليل من «باب السر»، ومعه أموال عظيمة قاصد القلعة، «قلعة جعبر»^(٢) يستشير في أمره»^(٣).

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ١٠٣.

(٢) قلعة جعبر: تقع على الفرات بين بالس والرقعة، وتقع الآن وسط بحيرة سد الفرات. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٤١-١٤٢؛ ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٤٤٤، هامش (١)).

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ١٠٣.

عرض ابن أبي طي بعد ذلك الرأي الثاني والثالث في أسباب مقتل لؤلؤ الخادم، وبدأ روايته بتأكيد ولاية سلطان شاه بن ألب أرسلان حلب بعد هروب لؤلؤ، فقال: «لما خرج الأمير لؤلؤ الخادم من حلب قاصدا صاحب قلعة جعبر يستشير في أمره كما قدمنا شرحه، واستتاب في قلعة حلب من قبله من يحفظها، فتحوا للملك سلطان «الدولة»^(١) محمد بن الملك ألب أرسلان بن الملك رضوان بن تنش بن ألب أرسلان الباب، وأقاموه ملكا بحلب»^(٢).

ثم تناول ابن أبي طي في الرأي الثاني الرأي الذي ذكره كثير من المؤرخين^(٣) عن قيام لؤلؤ الخادم بتنصيب سلطان شاه ملكا على حلب، ثم أشار بإيجاز إلى مقتل لؤلؤ وتولى الأمير «يارقتاش»^(٤) تدبير شئون حلب، فقال: «وقيل: أن لؤلؤ أقامه وجعله سلطانا، وأخذ أموالا وخرج بها ليجتمع «بصاحب قلعة جعبر»^(٥) فقتل، فاستقام الأمر لابن ألب أرسلان وقام بأمره الأمير «الإصفهسلار»^(٦) «يارقتاش الخادم» مملوك جده»^(٧).

(١) سلطان الدولة: لم يرد في كثير من المصادر التي بحثنا فيها أن سلطان شاه كان يعرف أيضا بسلطان الدولة، ولعله لقب له انفرد ابن أبي طي بذكره.

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ١٠٣.

(٣) العظمي: المصدر السابق، ص ٣٢؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٧١؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٢.

(٤) هو شمس الخواص يارقتاش: خدم في جيش الملك رضوان بن تنش، وتولي قيادة العسكر وإقطاع الجند في حلب بعد وفاة ألب أرسلان بن رضوان في عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م، ثم اعتقله لؤلؤ الخادم في عام ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م، وأطلقه بعد عام فسار إلى دمشق، ثم دخل حلب بعد مقتل لؤلؤ الخادم في عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م، وتولي تدبير شئونها للملك سلطان شاه، وبعد شهر من ولايته حاول بسط سيطرته على القلعة، فمنع من ذلك فغادر حلب. (ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ١٤٩، ١٧٢-١٧٩).

(٥) هو شمس الدولة سالم بن مالك العقيلي: تولى قلعة جعبر في عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م، وظل واليا عليها حتى وفاته عام ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م. (ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ١٤١، ٣١٩).

(٦) الإسفسلارية: اسم لوظيفة من وظائف أرباب السيوف، وترتيبها الثالث بعد الوزارة وصاحب الباب. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٨-٤٧٩).

(٧) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ١٠٣ (نقل هنا المعنى العام لنص ابن أبي طي)

أما الرأى الثالث فقد عرض فيه ابن أبى طى ما قيل عن اتهام الأمير يارقتاش بقتل لؤلؤ، فقال: «وقيل: أن يارقتاش هو الذى باشر قتل لؤلؤ فى آخر ذى الحجة من سنة عشر وخمسة»^(١).

أحوال حلب بعد مقتل لؤلؤ الخادم:

وبعد مقتل لؤلؤ الخادم تولى الأمير «يارقتاش» - كما ذكر كثير من المؤرخين - تدبير أمر الملك «سلطان شاه بن رضوان بن تش»، ولم تستمر ولايته سوى شهر واحد

وهو شهر المحرم عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م، لأنه كان قد طمع فى بسط سيطرته على

قلعة حلب، فقبض عليه الأمراء الموكلون بحفظ القلعة بأمر «بنات الملك رضوان» وأخرجوه من حلب، وتولى بعده «ابن الملحقى الدمشقى»^(٢) تدبير أمر حلب^(٣).

وقد كان لابن أبى طى رأى آخر اختلف فيه مع غيره من المؤرخين حول من كانت له السيطرة على شئون حلب خلال شهر المحرم، حيث ذكر فى أولى رواياته عن هذا الموضوع قيام ابن الملحقى بتدبير أمر حلب، ثم أوضح فى رواية ثانية اشتراك يارقتاش مع ابن الملحقى فى السيطرة على حلب، ثم ذكر تفاصيل الخطة التى وضعها ابن الملحقى لإبعاد يارقتاش لكى ينفرد بتدبير أمر حلب.

أكد ابن أبى طى فى أولى رواياته عن أحوال حلب عقب مقتل لؤلؤ الخادم، ما ذكره من قبل بشأن تاريخ ولاية سلطان الدولة بن ألب أرسلان حلب عقب هزيمة لؤلؤ الخادم، ثم ذكر قيامه بمصادرة أموال لؤلؤ الخادم، فقال: «استقرت حال سلطان الدولة محمد ابن

(١) المصدر نفسه والورقة .

(٢) انفرد ابن أبى طى بترجمة هامة عنه سنذكرها فى الصفحات القادمة .

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق، ص ٣١٦ - ٣١٧؛ العظمي : المصدر السابق، ص ٣٣؛ ابن الأثير:

المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٧٩؛ ابن العديم : المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

الملك ألب أرسلان بن الملك رضوان بن الملك تتش بن الملك ألب أرسلان السلجوقى صاحب حلب فى أول المحرم من سنة إحدى عشرة وخمسةائة ثم قال: وأول شىء بدأ به أن قبض على أموال الأمير لؤلؤ وأصحابه^(١).

ثم عرض ابن أبى طى كيف كانت حلب فى تلك الفترة مطمعا لبعض الإمارات الصليبية والإسلامية، فأوضح كيف استفاد أمير أنطاكية الأمير «روجردى سالرنو»

(١١١٢ - ١١١٩ م / ٥٠٦ - ٥١٣ هـ)، من اضطراب أحوال حلب، وأضاف إليه أحد الحصون التابعة لحلب على الطريق بينها وبين دمشق، واتفقت التفاصيل التى أوردها ابن أبى طى عن ذلك مع غيره من المؤرخين، وأضاف ابن العديم تفاصيل أخرى حولها^(٢)، قال ابن أبى طى: «وشرع فى مهادنة الفرنج، وسلم إليهم «حصن القبة» مصانعة لهم»^(٣).

تطرق ابن أبى طى بعد ذلك لأحوال حلب الداخلية، وانفرد بذكر المزيد من التفاصيل عن وزراء حلب فى تلك الفترة، كما أكد قيام ابن الملحق بتدبير شئون حلب.

قال ابن أبى طى: «وكان يدبر أمره «جلال الدولة شرف الكتاب أبو المعالى الملحقى الدمشقى»، وأخرج الوزير «هبة الله بن أبى الفضل بن الموصول» من الحبس^(٤)، واخذ خطه بعشرين ألف دينار، ووزر له «تاج الرؤسا أبو الوفا بن السرطان»، وصرف «أثير الملك»، وجعل الملك سلطان الدولة جلال الدولة الملحقى فى القلعة وإليه تدبير الأحوال وأقام هو

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ١٠٨.

(٢) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٣١٦؛ العظمي: المصدر السابق، ص ٣٣؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٩؛ حسين عطية: تاريخ أنطاكية، ص ١٣٩.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ١٠٨.

(٤) كانت آخر إشارة وردت عنه فى كتابات ابن العديم قبل هذه الأحداث تشير إلى ولايته الوزارة للؤلؤ الخادم فى عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م، ويظهر من رواية ابن أبى طى أنه قبض عليه بعد ذلك. (زبدة الحلب، ج ٢، ص ١٧٣).

في «دار البركة» تحت القلعة»^(١).

ثم ختم ابن أبي طي روايته الأولى عن أحوال حلب بذكر المحاولة التي قام بها أمير الرحبة الأمير «قسيم الدولة آق سنقر البرسقي» لبسط سيطرته على حلب، وتناول أيضا هذه المحاولة غيره من المؤرخين^(٢)، وانفرد ابن أبي طي بينهم بتحديد مدة حصاره لها، فقال: «واتصل هذه الأخبار بالأمير «اقسنقر البرسقي المنعوت بقسيم الدولة»^(٣) وكان في الرحبة، فتوجه إلى حلب، ونزل عليها طامعا في تملكها، فحاصرها ثلاثة وأربعين يوما، فلم يجد فيها مطمعا فرحل عنها عايذا إلى الموصل»^(٤).

أما الرواية الثانية التي أوردها ابن أبي طي عن أحوال حلب في شهر المحرم عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م، فقد تناول فيها تفاصيل العلاقة بين ابن الملحى ويارقتاش، وأمدنا بكثير من المعلومات الهامة التي انفرد بها عن ابن الملحى وأطباعه في الاستقلال بتدبير أمر حلب، والمخطط الذي وضعه لإبعاد يارقتاش عن حلب.

فقال ابن أبي طي عن أطباع ابن الملحى في الاستقلال بتدبير أمر حلب: «في شهر المحرم دبر ابن الملحى على الأمير يارقتاش وأخرجه من حلب واستبد بأمرها. ثم قال: وكان

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ١٠٨.

(٢) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٣١٦؛ العظيمي: المصدر السابق، ص ٣٣؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٧-١٧٨.

(٣) هو أبو سعيد آق سنقر البرسقي الغازي الملقب قسيم الدولة سيف الدين: ولاء السلطان محمد بن ملكشاه الشحنة في بغداد في شعبان عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م، ثم أقطعه الرحبة، وولاه الموصل في عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م، ثم أقطعه السلطان محمود بن محمد الموصل والجزيرة وسنجار في عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م، وواسط وأعمالها في عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م وكان من كبار الأمراء في دولة السلاجقة، وقتل في عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م، وسوف نذكر في القسم الثاني من هذا الفصل الترجمة التي أوردها عنه ابن أبي طي. (ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٢٧٣، ٣٠٢، ٣٠٩؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٤٢).

(٤) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ١٠٨.

ابن الملحي رجلا عظيما يحدث نفسه بالملك، واخذ في تقرير الحال لنفسه، وأفضى بذلك إلى جماعة؛ وذلك في ثاني عشرين محرم، فثقل أمره على جماعة الحلبيين وقالوا: ما نولى علينا دمشقيا، وصاروا إلى سلطان الدولة بن ألب أرسلان وسأله عزله، فيقال أن ابن الملحي دس عليه من سمه والله أعلم. ثم قال: «وقيل دبر عليه حتى أخرجه من حلب فصار إلى المشرق»^(١)،^(٢).

ثم أورد ابن أبي طي ترجمة هامة عن ابن الملحي انفرد فيها بذكر تطور أحواله حتى مقتل لؤلؤ الخادم، فقال: «وكان جلال الدولة شرف الكتاب أبو المعالي بن الملحي المذكور أدبيا فاضلا عاقلا، وكان يتكلم بالتركية، فيجيد ويعمل جميع أعمال الجنديّة، مضافا إلى جودة الخط وكثرة الأدب، وكان يركب بالقبا والقلنسوة على هيئة الأتراك.

وكان في ابتدا أمره عارضا لجيش الملك رضوان بن الملك تتش بن السلطان ألب أرسلان صاحب حلب، وخطى خطوة ونبغ نبوغا عظيما. وكان الأمير لؤلؤ لما استولى على الأمر بحلب بعد الملك ألب أرسلان بن الملك رضوان كما قدمنا شرحه، جعل جلال الدولة بن الملحي المذكور في جملة سلطان الدولة بن الملك ألب أرسلان بن الملك رضوان مدبرا أمره، فلما جرى على الأمير لؤلؤ ما قدمنا شرحه، واستقرت حال الملك سلطان الدولة في حلب، وكان سلطان الدولة صغيرا لم يبلغ الحلم غلب ابن الملحي على الأمور واحسن

(١) أشار هنا ابن أبي طي إلى الآراء التي قيلت حول مستقبل سلطان شاه بن رضوان، وأوضح دور ابن الملحي في ذلك، وقد أكد ابن العديم وابن الفرات ما ذكره عن انتقاله إلى المشرق، ولكنها اختلفا في تاريخ ومكان انتقاله، كما لم يرد في كتاباتهم ذكر دور لابن الملحي في ذلك، فذكر ابن العديم أنه صار إلى قلعة جعبر في عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م وأعيد في نفس العام بقرار من سليمان ابن إيلغازي بن أرتق. وكان نائبا عن والده في حكم حلب في ذلك الوقت. بينما ذكر ابن الفرات أن إيلغازي اعتقله بديار بكر عقب سيطرته على حلب في عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ - ١١١٩ م، وهناك المزيد من التفاصيل عنه سيذكرها ابن أبي طي في أحداث عام ٥١٨ هـ (ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، م ١، ج ٢، ورقة ٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٢٠٠، ٢٠٢).

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ١١٠.

التوصل إلى الناس بمكره وحيله حتى انتقل إلى القلعة في «رابع عشر» شهر الله المحرم من سنة إحدى عشرة هذه السنة^(١).

عرض ابن أبي طي بعد ذلك تفاصيل الخطة التي نفذها ابن الملحى لإبعاد يارقتاش عن حلب، فقال: «فابتدأ بإخراج الأمير شمس الخواص يارقتاش، وإنزاله من القلعة بحيلة لطيفة، وذلك أن قال له: أنا وأنت قد غلبنا على الأمور، وأنت تركي وأنا بلدي ومتى...، أما الحلبيين كرهوني....، والصواب أن أكون أنا في القلعة وأنت في البلد حتى تتم لنا الأمور، ففعل ذلك الأمير يارقتاش ونزل إلى المدينة، وسكن في دار البركة ولما تيقن جلال الدولة بن الملحى نزول يارقتاش جمع من في القلعة من الأجناد، وكان أكثرهم من دمشق وحمص وبعلبك..... لنفسه، وأمر بأبواب القلعة فغلقت، وصاحوا وركبوا.....، فطن الأمير يارقتاش أنه قد عمل عليه، فطار عقله، وركب فرسه بقميص ونعلين وخرج من «باب أربعين»^(٢) بحلب هاربا على وجهه، وسار إلى الأمير «نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين»^(٣)،^(٤).

هكذا كانت الأحوال في حلب بعد مقتل لؤلؤ الخادم في ذي الحجة عام ٥١٠ هـ / ١١١٧ م وخلال شهر المحرم عام ٥١٢ هـ / ١١١٧ م كما ذكرها ابن أبي طي، وكما

(١) المصدر نفسه والورقة .

(٢) باب أربعين : يلي الباب المعروف « بالباب الصغير » ، واختلف في تسمية باب أربعين بهذا الاسم فقيل أنه خرج منه مرة أربعون ألفا فلم يعودوا قسما بذلك ، وهناك آراء أخرى في أسباب تسميته انظر . (ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٧٢) .

(٣) هو نجم الدين إيلغازي بن أرتق بن أكسب : كان من أمراء الملك « تاج الدولة تش السلجوقي » في الشام ، ثم انتقل إلى بلاد الجزيرة الفراتية ، وملك « ماردين » في عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ - ١١٠٨ م ثم ملك حلب بعد أولاد الملك رضوان بن تش في عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ - ١١١٩ م ، وملك أيضا ميافارقين قبل موته بعام ، وتوفي بها في رمضان عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ - ١١٢٣ م . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٩١ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٤ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٩) .

(٤) ابن الفرات : المصدر السابق م ١ ، ج ١ ، ورقة ١١٠ .

لاحظنا فقد أكد في كتاباته عن تلك الفترة أن ولاية سلطان شاه بن ألب أرسلان الرسمية لحلب، أو سلطان الدولة كما سماه في بعض الأحيان، بدأت عقب مقتل لؤلؤ الخادم، وأنه قام كل من ابن الملحق ويارقتاش بتدبير أمور حلب في بداية عهده، ثم نجح ابن الملحق في إبعاد يارقتاش وانفرد بتدبير أمره، وهذا الرأي خالف آراء كثير من المؤرخين.

وقد أكد ابن أبي طي رأيه هذا في رواية أخرى وردت في أحداث عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ - ١١١٩ م، وفيها عقد مقارنة بين عدة آراء قيلت حول ولاية الأمور في حلب في تلك الفترة، منها: آراء بعض المؤرخين السابقين له، وأيضا رأى والده، ورأى أحد

قضاة حلب، فقال: «أن الأمير لؤلؤ انفرد بمملكة حلب بعد «الملك سلطان شاه»^(١) ابن الملك ألب أرسلان بن الملك رضوان صاحب حلب، وولى بعده ابن الملحق. ثم قال: ورأيت في تاريخ «ابن أبي جرادة»^(٢)، أن الملك سلطان الدولة ملك بعد أبيه الملك

رضوان، ولم يذكر لؤلؤ الخادم ولا ابن الملحق، وقد ذكر «ابن القلانسي» كما ذكرت أولا^(٣)، ثم قال: وذكره «أبي» في مجموعته، وكذلك وجدته في مجموع القاضي «العدل بن

(١) في رأينا أنه حدث خطأ غير مقصود سواء من ابن أبي طي أو من ابن الفرات في كتابة هذا الاسم لأن ابن أبي طي أكد في كتاباته السابقة أن لؤلؤ الخادم انفرد بتدبير حلب بعد مقتل ألب أرسلان، وأن سلطان شاه تولى حلب بعد مقتل لؤلؤ الخادم

(٢) هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي جرادة : من بيت أبي جرادة في حلب ، واشتهر منهم عدد من الأدباء والفقهاء والقضاة الحنابلة ، وتفرد أبو الحسن في حلب بكثير من العلوم ، وكتب بخطه ثلاث خزائن من الكتب لنفسه ، وتوفي في عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م عن ثمان وثلاثين سنة (ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٤ ، ص ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤١٠ . C . CAHEN : La Syrie De Nord , p .

(٣) كان ابن القلانسي قد ذكر ذلك في أحداث عام ٥١٠ هـ ، فقال : « وفيها وردت الأخبار من ناحية حلب ، بقتل لؤلؤ الخادم ، الذي كان غلب أمره فيها ، وعمل علي قتل ولد مولاه الملك ألب أرسلان ابن رضوان » ، واختلف ابن القلانسي مع ابن أبي طي ، وذكر قيام يارقتاش بتدبير أمر حلب قبل ابن الملحق . (تاريخ دمشق ، ص ٣١٥ - ٣١٧) .

دحم الحلبي^(١).

وهذه الرواية بالإضافة إلى ما تحمله من معلومات تاريخية كشفت لنا أيضا عن بعض النقاط الهامة التي توضح منهج ابن أبي طي في الكتابة التاريخية.

فبالنسبة لمصادر كتاباته اتضح أنه كان يعتمد على كثير من الكتابات التي سبقته سواء كانت مصادر لمؤرخين مشهورين، أو «مجاميع» جمعها من هم من غير المؤرخين من كبار الشخصيات في حلب، وهذا يفسر لنا أسباب انفراده بذكر الكثير من التفاصيل حول تاريخ حلب. ومن ناحية أخرى كشفت الرواية عن مصدرين من مصادر ابن أبي طي الهامة، والتي لم يصرح باعتماده عليهما سوى في هذه الرواية، وهما المؤرخ الحلبي «ابن أبي جراح» (ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م)، والمؤرخ الدمشقي «ابن القلانسي» (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م).

كما ظهر منها أيضا أنه كان لوالد ابن أبي طي «مجموع» دون فيه كثير من الأحداث، والتي صارت بعد ذلك مصدرا هام من مصادر ابن أبي طي في كثير من الكتابات التي اعتمد فيها على والده، وأخيرا كشف لنا تنويه ابن أبي طي عن «مجموع القاضي الحلبي العدل بن دحم» أنه كان على صلة بكبار الشخصيات في حلب، سواء كانت هذه الصلة بحكم مكانة والده في حلب، أو بسبب مكانة ابن أبي طي بعد ذلك بين مؤرخي حلب الكبار.

كما ظهر من هذه الرواية أيضا أحد ملامح منهج ابن أبي طي في انتقاء مادة كتاباته وهو اهتمامه بمقابلة الروايات، واعتماده على الرواية التي اتفق عليها أكثر من مصدر.

هذا بالنسبة للآراء التي قيلت حول أحوال حلب في عهد لؤلؤ الخادم (٥٠٨ - ٥١٠ هـ / ١١١٤ - ١١١٧ م)، والفترة التي تلت مقتله (آخر ذى الحجة ٥١٠ - المحرم ٥١١ هـ

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ٩.

/ ١١١٧ م)، أما بالنسبة لأحوال حلب بعد ذلك، فقد أكد معظم المؤرخين قيام «ابن الملحي» بتدبير أمر الملك «سلطان شاه بن رضوان» منذ آخر المحرم ٥١١ هـ / ١١١٧ م^(١).

حلب في عهد الأراتقة:

ثم خضعت حلب بعد ذلك لسلطة الأراتقة، وكان أول من تولاها منهم الأمير «نجم الدين إيلغازي بن أرتق» أمير ماردين، واختلفت هنا آراء كثير من المؤرخين حول تحديد الشهر والعام الذي تولى فيه أمر حلب، ويرجع هذا الخلاف إلى أنه كان قد قدم إلى حلب مرتين، الأولى كانت - كما حددها ابن القلانسي - في شهر صفر ٥١١ هـ / ١١١٧ م، ثم غادرها واستمر بعد ذلك ابن الملحي في تدبير أمور حلب للملك سلطان شاه بن رضوان^(٢)، ثم جاء نجم الدين إيلغازي إلى حلب مرة أخرى وتولى أمرها رسمياً، وهنا اختلف المؤرخون حول تاريخ دخوله حلب، فذكر «العظيمي» أنه كان في عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م، وحدده ابن العديم في عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م^(٣).

أما ابن أبي طي فقد ذكر تاريخاً وسطاً وهو عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ م، ولكنه لم يحدد بدقة الشهر الذي دخل فيه إيلغازي حلب، وذكر في ذلك تاريخين مختلفين، ولهذا نقده ابن الفرات بعد ذلك. فأورد في الرأي الأول تاريخ تقريري، فقال: «وكان متولى حلب حين خلف «المسترشد بالله» الأمير إيلغازي ابن أرتق»^(٤).

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٣١٧؛ العظيمي: المصدر السابق، ص ٣٣؛ ابن الأثير:

المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٧٩؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٩ - ١٨١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٧؛ وانظر أيضاً: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٧٩؛ ابن العديم:

المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٠ - ١٨١؛ ابن شداد: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٠ - ٢١.

(٣) العظيمي: المصدر السابق، ص ٣٤؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٥.

(٤) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ٩.

أما التاريخ الثاني فقد ذكره ابن الفرات أثناء نقده رأى ابن أبي طي الأول، فقال: «انتهى كلامه، وفي ما قاله نظر لأنهم قالوا أن خلافة المسترشد بالله كانت في شهر ربيع الآخر من هذه السنة، وكذلك ذكر هو»^(١)، وقال في موضع آخر أن الأمير إيلغازي استولى على حلب في «شعبان» من هذه السنة»^(٢).

على أية حال استمرت ولاية «نجم الدين إيلغازي بن أرتق» لحلب حتى وفاته في شهر رمضان عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م، وخلفه في حكمها ابن أخيه «بدر الدولة سليمان ابن عبد الجبار»، ولكن لم تستمر ولايته لها - لسوء إداراته وضعفه - سوى بضعة أشهر حتى شهر جمادى الأولى عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م^(٣)، حيث استغل ابن عمه

«نور الدولة بلك بن بهرام بن أرتق»، هذا الضعف وقام بحصار حلب منذ شهر ربيع الأول عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م، وبلغت شدة هذا الحصار إلى أن قام - كما ذكر ابن القلانسي - بإحراق زرعها^(٤)، وقد أكد ذلك أيضا ابن أبي طي، وانفرد بمزيد من التفاصيل الأخرى المهمة عن أحوال حلب في تلك الفترة، فتناول موقف كبار البيوت بها من ولاية كل من «بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار» و «بلك بن بهرام بن أرتق»، وأوضح انقسامهم إلى فريقين، كل منهما يؤيد أحد الولاة، ودفعهما إلى ذلك العديد من الأسباب السياسية والعسكرية والاقتصادية والمذهبية.

قال ابن أبي طي: «سار الأمير بلك إلى حلب ونزل عليها، وحاصرها أياما، وأحرق زرعها لأن الحلبيين جدوا في قتاله، وكان السبب في كراهة الحلبيين للأمير بلك بعد أن كانوا

(١) أوردنا هذا التاريخ في الفصل الخاص بكتابات ابن أبي طي عن الخلافة العباسية.

(٢) المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ٩.

(٣) العظيمي: المصدر السابق، ص ٣٦، ٣٨؛ ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٣٣٠ - ٣٣٢؛ ابن

الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣١٢؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٦، ٢١٢

(٤) المصدر السابق، ص ٣٣٢. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣١٢؛ ابن العديم

: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٢.

رغبوا فيه واستدعوه إليها، أن الأمير بدر الدولة لما تبين له قصد الأمير بلك، رغب إلى جماعة من الحلبيين وأعلمهم أنه كاره لمقارقتهم وظهر أسى على ذلك، ودمعت عيناه فرقوا له وحلفوا له على حراسته وحفظه، وكان من جملة من حضره «ابن صاعد بن بديع»^(١) رئيس حلب و«أولاد العجمي»^(٢) و«أولاد الطرسوسي»^(٣)،

و«بنو جرادة القضاة»^(٤)، ورغبوا فيه ليلته إلى مذهب السنة.....، وكره ذلك «بنو الخشاب»^(٥) و«بنو المنذر» لمكان عجزه عن نصرة حلب وقلة رجاله وماله ورأوا أن الأمير

(١) هو فضائل بن صاعد بن بديع : تولى رئاسة رئيس حلب عند سيطرة «حسام الدين غمراش بن إيلغازي بن أرتق» علي حلب في عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ، ثم تركها عقب ولاية أتابك عماد الدين زنكي حلب في عام ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م ، وسار إلى قلعة جعبر . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣) .

(٢) بنو العجمي : من البيوت المعروفة في حلب ولهم العديد من الآثار بها ، فأسس «شمس الدين أبو بكر أحمد بن العجمي» خانقاه عرفت باسمه ، ووقفها أخوه «شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن» علي الصوفية عند موته ، كما أسس «الشيخ شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن بن أبي صالح عبد الرحيم» «المدرسة الشرفية» ، ودرس فيها ولده «محيى الدين محمد» إلي أن قتله التتار عند استيلائهم علي حلب في عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م . (ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٤ ، ٢٥٨) .

(٣) بنو الطرسوسي : من الأسر المعروفة أيضا في حلب ، منهم : «شمس الدين أبو القاسم بن الطرسوسي» الذي أشرف علي عمارة إحدى الخوانق في عهد نور الدين محمود بن زنكي ، والقاضي «أبو الحسن بن الطرسوسي» الذي أنشأ مسجدا في حلب ، ولهم مسجد آخر عرف باسمهم في الرحبة . (المصدر نفسه ، ص ١٨٥ - ١٨٦ ، ٢٣٣) .

(٤) بيت أبي جرادة : من البيوت المشهورة في حلب ، كان منهم الأدباء ، والشعراء ، والفقهاء ، والقضاة ، والمؤرخون ، ومن أشهرهم المؤرخ ابن العديم . لمزيد من التفاصيل انظر . (ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٤ ، ص ٤٣٣ - ٤٦٣) .

(٥) بنو الخشاب : من الأسر الشيعية المعروفة في حلب ، وكان جدهم «القاضي عيسى» قد ترك حصن الأكراد ، واستوطن حلب في عهد مؤسس الدولة الحمدانية «سيف الدولة الحمداني» (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٧ م) ، ومنذ ذلك الوقت أصبح لأولاده مكانة كبيرة لدى ملوك حلب . (ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١١٣ - ١١٤) .

بلك أكثر رجالا وأموالا وأشجع حنانا وأعز أعوانا، ولما رأى الأمير بلك الحلبيين صابرين على قتاله، رحل عن حلب إلى «قنسرين»^(١)، وأوهم أنه صاير إلى حماة^(٢).

ثم نجحت مساعي الأمير بلك بن بهرام في السيطرة على حلب، وكان ذلك - كما ذكرنا من قبل - في شهر جمادى الأولى من عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م، ولكن لم تدم ولايته أيضا لحلب مدة طويلة، حيث قتل في شهر صفر عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م أثناء حصاره قلعة «منبج»^(٣)، وتولى حلب من بعده ابن عمه الأمير «حسام الدين تمرناش بن إيلغازي بن أرتق» في ربيع الأول من السنة^(٤).

الحصار الصليبي لحلب:

بعد عدة أشهر من ولاية الأمير «حسام الدين تمرناش بن إيلغازي بن أرتق» تعرضت حلب لحصار شديد من قبل اثنين من ملوك الصليبيين، وهما: «الملك بلدوين الثاني» (١١١٨ - ١١٣١ م / ٥١٢ - ٥٢٥ هـ) ثاني ملوك مملكة بيت المقدس، والأمير «جوسلين دي كورتناي» أمير الرها (١١١٩ - ١١٣١ م / ٥١٣ - ٥٢٦ هـ)، ودفعهم إلى هذا الحصار أسباب تتعلق بالحادثة التي كان قد تعرض لها الملك بلدوين الثاني منذ عام ونصف، وهي وقوعه في أسر الأمير بلك بن بهرام منذ شهر صفر عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م، وكان قد تقرر الإفراج عنه بشروط منها دفع مبلغ من المال، مع تسليم عدد من الرهائن، فدفع جزءا من

(١) قنسرين: بكر أوله، وفتح ثانيه وتشديده، تقع بالقرب من حلب، وكانت مدينة عامرة أهلة بالسكان حتى غزت قوات الدولة البيزنطية حلب في عام ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م، فهجرها أهلها وتفرقوا في البلاد، ولم يبق بها سوى خان تنزله القوافل (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٠٣ - ٤٠٤).

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ٧٧.

(٣) منبج: بالفتح ثم السكون، تقع بالقرب من حلب. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٠٥ - ٢٠٧).

(٤) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٣٣٢؛ العظمي: المصدر السابق، ص ٣٨ - ٣٩؛ ابن الأثير:

المصدر السابق، ج ٨، ص ٣١٢، ٣١٥؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٢، ٢١٩ - ٢٢٠.

المبلغ، وتم الإفراج عنه في رجب عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م، فقرر حصار حلب لحاجته لأموالها ولإنقاذ الرهائن.

كما انضم أيضا للقوات الصليبية الأمير «دبيس بن صدقة بن مزيد»^(١) أمير بلدة «الحلة»^(٢)، بعد هزيمته أما الخليفة المسترشد بالله في عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م، فكان طامعا أيضا في الاستيلاء على حلب، وكان مذهبه الشيعى من الأسباب التى شجعتة على غزوها، لأنه كان مذهب أكثر أهل حلب، وكان ذلك أيضا من أسباب اتحاد القوى

الصليبية معه أملا في بسط سيطرتهم على حلب من خلاله، فقاموا لذلك بحصارها في شعبان عام ٥١٨ هـ / أكتوبر ١١٢٤ م^(٣).

وقد تناول ابن أبى طى في عرضه لتفاصيل هذا الحصار الكثير من الأحداث المهمة

(١) هو نور الدولة أبو الأعز دُبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدي : نشأ في أسرة شيعية المذهب ، وكان والده وجده أمراء على الحلة وازدهرت كثيرا في عهدهم ، ثم قتل والده في أحد المعارك مع السلطان محمد بن ملكشاه في عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م ، وأمر السلطان محمد ولده دبيس هذا وظل في أسره حتى وفاة السلطان في ذي الحجة عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م ، ثم أطلقه السلطان محمود بن محمد وعاد إلى الحلة ، ومنذ ذلك الوقت خاض دُبيس العديد من المعارك مع الخليفة المسترشد بالله وهاجم العراق عدة مرات ، حتى وصف أنه كان «مسعر حرب» و«جمرة بلاء» . وقتله السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه في ذي الحجة عام ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م ، وسوف نوضح في فصل الخلافة العباسية ودولة السلاجقة ما ذكره ابن أبى طي عن تفاصيل علاقته مع الخلافة العباسية وأحداث مقتله . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ١٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٨٠ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٤ ، ص ٤٨٨ ؛ العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٩٠ - ٩١) .

(٢) الحلة : تعرف بحلة بنى مزيد ، وهي مدينة كبيرة تقع بين الكوفة وبغداد . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٩٤) .

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٣٢ - ٣٣٥ ؛ العظيمي : المصدر السابق ، ص ٣٦ - ٣٧ ؛ ولیم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٦٣ - ٣٦٤ ، ج ٣ ، ص ٤٣ - ٤٤ ، ٧٧ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣١٠ - ٣١١ ، ٣١٦ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٠ - ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٢١ - ٢٢٣ .

وانفرد بمعظمها، ومن أهمها المراسلات التي دارت بين الأمير ديبس بن صدقة والقاضي «أبو الحسن بن الخشاب»^(١) في حلب، وبين ديبس بن صدقة وملوك الصليبيين..

قال ابن أبي طي عن أحداث الحصار الأولى: «لما بلغ الخبر إلى حلب يعني قتل الأمير بلك بن بهرام بن أرتق صاحب حلب على «منيح» - كما قدمنا شرحه - أعظموا الأمر، وغلقت أبواب حلب، وسار الأمير ديبس بن صدقة... إلى حلب ونزل على ظاهرها، واستدعى ملوك الفرنج... وصار أهلها في أسوأ الأحوال»^(٢).

ثم انفرد ابن أبي طي بذكر أولى المراسلات بين القاضي ابن الخشاب وديبس بن صدقة، وفيها عاتبه ابن الخشاب على اتحاده مع الصليبيين، وخاطب فيه المروءة والفتوة، كما عاتبه على استغلاله حالة الضعف التي عليها أهل حلب الذين هم يدينون بنفس مذهبه، ثم ختم رسالته بتوضيح خطورة استيلاء الصليبيين على حلب على البلاد

لإسلامية الأخرى، فقال: «فأرسل القاضي ابن الخشاب إلى الأمير ديبس رسالة طويلة يقول في جملتها «أيش.... المروء والفتوة، وكيف... أن يقصد... الثغر مع ما هو عليه من الضعف، وقلة.. جيوش الكافرين الذين قد جأروهم وقتلوا أهلهم، مع أن جميع من بحلب يعتقدون اعتقادك ويدينون بمذهبك..... الله تعالى.. في دماء المسلمين، وحرمة الدين ولا يطع العدو في هذا المكان، فوالله لين استولوا عليه لا امتنع بعده عليهم.... للإسلام»^(٣).

(١) هو القاضي أبو الحسن محمد بن يحيى بن محمد بن الخشاب: تولى تدبير أمور حلب أثناء تعرضها لهذا الحصار، حتى إنه كان يعطى الفقراء من ماله الخاص. ومن آثاره بحلب: أنشأ مسجد الجرن الأصفر، وأسس منارة المسجد الجامع في حلب في عهد قسيم الدولة آقسنقر في عام ٤٨٢ هـ / ١٠٨٦ م، وقتل في عام ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م، وسوف نذكر ترجمة ابن أبي طي عنه في آخر أحداث الفصل. (ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٢٢٥؛ ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ١١٣-١١٤، ١٨٨).

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ٨٤.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ٨٤-٨٥..

فتلقى القاضي ابن الخشاب ردا من الأمير ديبس بن صدقه أفصح فيه عن حقيقة نواياه، وهو السيطرة على حلب، وتعهده له بتقوية البلد وحفظها، فوافق القاضي ابن الخشاب على تسليمها إليه بشرط جلاء الصليبيين عنها، وهذه الرسائل انفرد بها أيضا ابن أبي طي فقال: «فأرسل الأمير ديبس يقول له: «إنما اطلب هذا البلد لنفسى، ومتى حصلت فيه منعت جانبه، وقويت أهله، وانتصفت لهم من أعدائهم. فأعاد القاضي ابن الخشاب عليه الجواب يقول: فإذا كان هذا عزمك ترحل الفرنج، وعد إلينا حتى نسلم إليك البلد»^(١).

فراسل الأمير ديبس بن صدقة ملوك الصليبيين في ذلك، فقبول طلبه بالتهكم والسخرية، وبلغه أيضا تهديد غير مباشر منهم، ولهذا غادر المعسكر متجها إلى قلعة جعبر، وظل الحصار الصليبي قائما على حلب.

قال ابن أبي طي: «فأرسل الأمير ديبس إلى ملوك الفرنج - لعن الله من مضى منهم وخذل من بقى منهم - يقول: أن هذا البلد قد حصل لى، وقد عرفت بقصدكم وبعثكم وأنا شاكر لجميل فعلكم، وقد وعدنى من به إذا رحلت أن يسلموه لى».

«فأرسل إليه ملوك الفرنج - لعن الله من مضى منهم وخذل من بقى منهم - يقولون: وأنت أى شئ لك فى هذا البلد حتى تقول أنا وأنا؟ والبلد لنا ونحن قد تعبنا عليه المدة الطويلة، وخسرنا عليه الأموال الجمة، فلا تطمع نفسك بالمحال، ولا تحدثها بالضلال، وهموا برسوله، فعاد إليه وأخبره بما جرى، فلم يكن لديس إلا أن جمع نفسه وأصحابه ورحل فى الليل لا يلوى على شئ حتى وصل إلى قلعة جعبر، ونزل على صاحبها ابن مالك العقيلي، وما رجع إليه روعه حتى حصل من ورا سورها، وأقام الفرنج - لعن الله من مضى منهم وخذل من بقى منهم - على حصار حلب، وجدوا فى

أمرها غاية الجدد، ونصبوا عليها عدة مجانيق.. وعزموا على عمل كبش وبرج»^(٢).

(١) المصدر نفسه، ورقة ٨٥.

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ٨٥.

ثم تطرق ابن أبي طي لتوضيح جهود الأمير حسام الدين تمرتاش في مقاومة الحصار، فقال: «وكان وصلها الأمير» حسام الدين نصير الدولة تمرتاش بن الأمير نجم الدين يلغازي بن أرتق «بعد قتل الأمير بلك بعشرة أيام، ولما صار الأمر بحلب إليه، وحصل بها قويت به نفوس الحلبيين، واشتد ظهورهم وأحسنوا القتال والنزال، وأبلوا الجهد حتى ضعف الفرنج عن ملاقاتهم»^(١).

وتناول ابن أبي طي أيضا موقف حسام الدين تمرتاش من ملك حلب السابق «سلطان شاه بن رضوان بن تتش»، كما عرض ما قام به من تغييرات إدارية في حلب، واقتربت روايته كثيرا من رواية «العظيمي» عن هذا الموضوع^(٢)، فقال: «واستوزر الأمير تمرتاش «أبا محمد بن الموصول»، وقبض على الأمير «سلطان شاه بن الملك رضوان»، واعتقله في ماردين فهرب من ماردين إلى الملك «داود بن سكيان بن أرتق»^(٣) وانتصر به^(٤)، ثم قبض الأمير تمرتاش «أبا محمد بن الموصول» وزيره وصادره، واستوزر «أبا الرجا بن السرطان»، وقتل «سليمان العجلي»^(٥)،^(٦).

ثم غادر «حسام الدين تمرتاش» حلب بعد وفاة أخيه «سليمان بن غازي» في رمضان عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م، وانشغل عنها ببسط سيطرته على أملاك أخيه في ميفارقين، ولهذا

(١) المصدر نفسه والورقة .

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩-٤٠ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٠ .

(٣) وهو أمير حصن كيفا . (ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٢، ص ٢٢٠) .

(٤) كنا قد تناولنا في الصفحات السابقة جانبا من أحوال الملك سلطان شاه بن رضوان بعد عزله من ولاية حلب ، وواصل ابن أبي طي في هذه الرواية عرض المزيد عنه ، وذكر العظيمي بعد ذلك انه شارك أيضا القوات الصليبية والأمير ديس بن صدقة في حصار حلب ، ولكن لم تنجح مساعيه هو وغيره من القوات في السيطرة عليها . (العظيمي : تاريخ العظيمي، ص ٤٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٢، ص ٢٢٤) .

(٥) هو سليمان العجلاني : كان قد تولي رئاسة حلب ، ثم عزل منها في عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م . (العظيمي : تاريخ العظيمي، ص ٣٩) .

(٦) ابن الفرات : المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ٨٥ .

اضطر الحلبيون لشدة الحصار طلب النجدة من أمير الموصل «آق سنقر البرسقي»، فجهز جيشا كبيرا لمساندة حلب^(١)، وقد اهتم البرسقي قبل وصوله إلى حلب بتدعيم أهلها الذين عانوا من شدة الحصار، فأرسل إليها حسب رواية ابن الفرات: «ميرة كثيرة وأمر أن تفرق في الناس ولا تباع بدرهم»^(٢).

وقد أمدنا ابن أبي طي بمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع، حيث كان لوالده نصيب من تلك المعونة، وحدد ابن أبي طي مقدار ما ناله منها، كما عقد مقارنة هامة بين وزن تلك المعونة في ذلك الوقت، وما تساويه بعد قرن من الزمان تقريبا في زمن ابن أبي طي، فقال: «حدثني أبي قال: «أصابني منها ثمان» مكاكي بالظاهري، يكون تقديره بالكيل الظاهري الآن «مكوكين ونصف»^(٣).

وظهر من تلك المقارنة انه على الرغم مما كانت تعانيه حلب من اضطراب وضعف أدى إلى طمع الكثير من الدول في السيطرة عليها منذ وفاة الملك «رضوان بن تش» في عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م، إلا أنها صارت بعد قرن من الزمان أسوا حالا، على الرغم من استقرارها السياسي في عهد الدولة الأتابكية والأيوبية، ويرجع ذلك في رأينا إلى الحروب الكثيرة التي خاضتها تلك الدول للقضاء على الوجود الصليبي في بلاد الشام، مما كان له أبلغ الأثر على الناحية الاقتصادية في حلب وغيرها من البلاد.

وواصل ابن أبي طي بعد ذلك روايته عن أحوال حلب أثناء الحصار، وانفرد بذكر أحد الأسباب التي عجلت بإنهاء الحصار الصليبي للبلد، وهو سوء حالة الطقس في حلب في ذلك الوقت، فقال: «وسار الأمير البرسقي إلى حلب، وفي الليلة التي اجتمع الحلبيون فيها على إجلاء البلد أصاب بلد حلب مطر عظيم كأفواه القرب، وجاءت السيول من كل

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٣٣٧؛ العظمي: المصدر السابق، ص ٤٠؛ ابن الأثير:

المصدر السابق، ج ٨، ص ٣١٦-٣١٧؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ٨٨.

(٣) المصدر نفسه والورقة.

مكان حتى غرقت خيم الفرنج، وذهب السيل بأكثر أمتعتهم ودوابهم واضطروهم ذلك إلى أن رحلوا إلى جبل جوشن واستراح الناس من قتالهم، ودامت الأمطار متواصلة والسيول متركمة مدة أربعة أيام، لا تمسك المطر... فإذا قل السيل عاد المطر، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن وصل الأمير البرسقى إلى حلب^(١).

ثم أورد ابن أبي طي بعد ذلك مقدمة عن الأمير آق سنقر البرسقى أوضح فيها مكانته كما عرض أيضا تفاصيل استغاثة الحلبيين به في الموصل، واتفق في ذلك مع «ابن العديم»^(٢)، فقال: «كان الأمير سيف الدين قسيم الدولة أقسنقر البرسقى» أحد الأمراء الكبار الأجلا الشجعان، وقد قدمنا كثيرا من أخباره إلى أن تولى الموصل بعد الأمير «مودود»^(٣) وأقام بها وأحسن السياسة، فلما كان في هذه السنة أرسل إليه القاضي ابن الخشاب وأعلمه بما المسلمون فيه من الضر، وأن الأمير «تمرتاش» قد بعد عن نجلهم وكان أرسل إليه جماعة من الفقهاء وشيوخ الحلبيين في..... فلما وصلوا إلى خيمته ضجوا ويكوا.... على ما نزل على المسلمين وعلى حرمهم، واعظموا عليه ذلك، وكان نازلا على بلد من أرض الموصل فبكى وأمر من وقته فرمى خيمه، ورحل لا يلوى على شئ حتى دخل حلب^(٤).

وكان الأمير آق سنقر البرسقى قد أعد جيشا كبيرا لإغاثة حلب، وقد كان لذلك أثرا كبيرا على الجانب الصليبي حيث رأوا - كما ذكر ولیم الصورى - أن الحكمة تملى عليهم الارتداد حفاظا على سلامة أنفسهم^(٥)، وقد أكد ذلك أيضا بعض المصادر الإسلامية^(٦)

(١) المصدر والورقة .

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٥-٢٢٨ .

(٣) وهو الأمير مودود بن التوتكين : كان أميرا على الموصل وقتل في عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م . (ابن الأثير : الكامل، ج ٨، ص ٢٦٦) .

(٤) ابن الفرات : المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ٨٨ .

(٥) المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٤-٤٥ .

(٦) ابن القلانسي : المصدر السابق، ص ٣٣٨؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٨، ص ٣١٧ .

بينما أكدت المصادر الحلبية مثله في ابن أبي طي وابن العديم أنه وقع قتال بين الطرفين انتهى بهزيمة الصليبيين^(١)، قال ابن أبي طي: «وكان دخوله إليها في أواخر ذي الحجة من ثمانى عشرة وخمسمائة، ومن يومه خرج إلى الفرنج وكبسهم في خيمهم، لأن بجى البرسقى لم يتصل إلى الفرنج لمكان... وقتل فيهم مقتلة عظيمة، فرحلوا عن حلب لا يلوون على شيء»^(٢).

وظلت حلب تابعة للأمير آق سنقر البرسقى منذ ذلك الوقت حتى مقتله في ذى القعدة عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م^(٣)، وقد ذكر ابن أبي طي تفاصيل مقتله في ترجمة أوردها عنه، وصرح فيها لأول مرة باعتياده على المؤرخ «حمدان بن عبد الرحيم».

بدأ ابن أبي طي الترجمة برواية ذكرها الأمير آق سنقر البرسقى أوضح فيها مهارته في رمي الناس بالسهم فقال: «كان الأمير سيف الدين قسيم الدولة آق سنقر البرسقى أحد الأمرا الكبار الأجلا الشجعان، وكان من أرمى الناس بالسهم. فحدث عن نفسه قال: كنت وأنا صغير مع أستاذي في قافلة، وكان تاجرا موسرا فييتنا ليلة في بيرة، وكان تحت رأسه «عيبة»^(٤) فيها متاع له..... وأوتى لص فأختطفها من تحت رأسه في الليل فصرخ أستاذي، فقمت وأخذت القوس، فسمعت وقع قدم اللص في الأرض فرميته بسهم فصرخ وسقط... أستاذي باتباعه فاتبعناه فوجدناه ملقى فأخذنا العيبة وعدنا»^(٥).

ثم تناول ابن أبي طي تفاصيل مقتل الأمير آق سنقر البرسقى في ذى القعدة عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م، واعتمد على المؤرخ «حمدان بن عبد الرحيم» في روايته، كما أورد ابن العديم

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٩.

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ٨٨.

(٣) ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٤.

(٤) العيبة: هي وعاء للمتاع والثياب. (ابن منظور: لسان العرب، ج ٩، ص ٤٩٠).

(٥) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ١٠٢.

ملخصا لها أورده أيضا عن حمدان بن عبد الرحيم^(١).

قال ابن أبي طي: «في ذى القعدة من هذه السنة وثب الباطنية على الأمير قسيم الدولة البرسقى فقتلوه في يوم الجمعة بجامع الموصل. «وذكر حمدان بن عبد الرحيم» أن الذي قتله رجل من ضيعة «أورم الكبرى»^(٢) من فلاحها اتبعه في جماعة فقتله، ويقال أنه كان له في «أورم» أم، فلما بلغها أن البرسقى قد قتل اغتسلت واكتحلت واختضبت فرحا بفعل ابنها وكونه يقتل، فيقال أن ابنها سلم من الجماعة وحده وعاد، فلما وصل إليها حزنت وقطعت شعرها وحلفت أنها لا تكلمه، وهذا مذهب الباطنية لا يعجبهم إلا من يُقتل إذا قتل»^(٣).

وبعد مقتل الأمير آق سنقر البرسقى بعام تولى أتابك عماد الدين زنكى حلب في عام ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م، وظلت تابعة لسلطة الدولة الأتابكية لأكثر من نصف قرن، وهذا ما سنوضحه من خلال كتابات ابن أبي طي في الفصل القادم.

ثانيا التاريخ الحضارى:

حرص ابن أبي طي في مؤلفاته عن حلب أن تغطي كتاباته كافة جوانب الحياة بها، ففضلا عن تاريخها السياسى خصص جانبا من كتاباته لدراسة أهم الآثار الدينية بها، وخاصة المشاهد الشيعية الباقية فيها، كمشهد الإمام على بن أبي طالب وولده الحسين، كما اهتم بتوضيح علاقة الشيعة الإمامية في حلب بغيرهم من المذاهب، فتناول في رواية هامة علاقتهم بالطرق الصوفية من خلال ما رواه عن بناء أول خانقاه في حلب، كما أراح الستار في روايات أخرى عن علاقة الشيعة الإمامية - التى كان منهم أكثر أهل حلب - مع الشيعة الإسماعيلية في حلب، كما أمدنا بمعلومات هامة عن المجتمع الحلبى (مأكله، وملبسه) من

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٥.

(٢) أورم: بالضم ثم السكون، وكسر الراء، اسم لأربع قرى من قرى حلب، ومنهم أورم الكبرى.

ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٧٨.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ١٠٧.

خلال تناوله بناء أول خانقاه في حلب.

وتعد كتابات ابن أبي طي عن هذه الموضوعات من أوائل الدراسات، ولهذا وجد كثير من المؤرخين اللاحقين به من كتاباته مادة هامة، فاعتمد عليه بعض مؤرخي حلب قديما وحديثا، كما اعتمد عليه غيرهم من المؤرخين، ولهذا وجدنا له كثيرا من النصوص التي اشترك في اقتباسها أكثر من مؤرخ، وسوف نعرض له هذه النصوص مع توضيح الاتفاقات والاختلافات بين كل اقتباس.

الآثار الدينية في حلب:

بناء المنارة في المسجد الجامع بها:

أسس المسجد الجامع في حلب منذ الفتح الإسلامي، وقيل عنه أنه كان يضاهاى مسجد دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء، ثم دمر المسجد في عهد الدولة الحمدانية على أثر الغزو البيزنطي لحلب في عام ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م، فعمل ملوك الدولة على ترميم وبناء ما تهدم منه، واهتم أيضا بعمارتها ولاة حلب من الفاطميين في عام ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م^(١).

أما مثذنة الجامع أو المنارة^(٢)، فقد تم بناؤها - كما ذكر ابن القلانسي والعظيمي - أثناء الحكم السلجوقي لحلب في عهد قسيم الدولة آق سنقر (٤٧٩ - ٤٨٧ هـ / ١٠٨٦ - ١٠٩٤ م) في عام ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م، وأضاف العظيمي أنه تم بناؤها بإشراف القاضي أبو الحسن ابن الخشاب، الذي أحضر الحجارة اللازمة لها من معبد قديم للمجوسية^(٣).

(١) ابن العديم: المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٩ - ١٤٠، ١٧٢، ٢١٨؛ ابن شداد: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٠٣ - ١٠٥.

(٢) ابن منظور: المصدر السابق، ج ١٤، ص ٣٢٢.

(٣) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٩٧؛ العظيمي: المصدر السابق، ص ٢٠؛ ابن شداد: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١١١ - ١١٢.

وتناول ابن أبي طي هذا الموضوع بإسهاب أضفى على روايته أهمية كبيرة، لأنه اهتم بجمع كافة البيانات عن بناء المنارة، فأوضح أنه استغرق إنشاؤها العديد من السنوات منذ أن وضع أساسها سابق بن محمود بن صالح (٤٦٨ - ٤٧٢ هـ / ١٠٧٦ - ١٠٨٠ م) - آخر ملوك الدولة المرديسية - حتى انتهى العمل فيها في عهد قسيم الدولة آق سنقر، كما اهتم أيضا بذكر العديد من البيانات الأخرى، بعضها تعلق بالمكلفين بالعمل فيها، والبعض الآخر تناول فيه المعلومات المعمارية الخاصة بإنشائها، ولهذا وجد عز الدين بن شداد (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) في روايته مادة هامة فأخذ عنه هذا النص، كما أورده أيضا عن ابن شداد «ابن الشحنة» (ت ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م) في اثنين من مؤلفاته

قال ابن أبي طي: «أسست «العمارة في هذه»^(١) المنارة في «زمان»^(٢) سابق «بن»^(٣) محمود بن صالح، على يد القاضي أبي الحسن بن الخشاب، وكان الذي عمرها رجل من «أهل»^(٤) «سرمين»^(٥)، و«أنه»^(٦) «بلغ»^(٧) بأساسها إلى الماء، وعقد حجارتها «بالكلاليب»^(٨) الحديد والرصاص، و«أتمها»^(٩) في أيام قسيم الدولة آق سنقر، وطول هذه المنارة إلى الدرابزين بذراع اليد سبع وتسعون ذراعا وعدد «مراقبيها»^(١٠) مائة وأربع وسبعون درجة»^(١١).

(١) إضافة في كتابات ابن الشحنة. (نزهة النواظر، ص ٥٥؛ الدر المختب، ص ٦٧).

(٢) في كتابات ابن الشحنة «زمان». (نزهة النواظر، ص ٥٥؛ الدر المختب، ص ٦٧).

(٣) ساقطة من الدر المختب لابن الشحنة (ص ٦٧).

(٤) ساقطة من كتابات ابن الشحنة. (نزهة النواظر، ص ٥٥؛ الدر المختب، ص ٦٧).

(٥) سَرْمِين: بلدة مشهورة من أعمال حلب. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢١٥).

(٦) إضافة في كتابات ابن الشحنة. (نزهة النواظر، ص ٥٥؛ الدر المختب، ص ٦٧).

(٧) في نزهة النواظر لابن الشحنة «بالغ». (ص ٥٥).

(٨) في كتابات ابن الشحنة «كلاليب» (نزهة النواظر، ص ٥٦؛ الدر المختب، ص ٦٧).

(٩) في الدر المختب لابن الشحنة «أتمها». (ص ٦٧).

(١٠) المراقاة: بالفتح والكسر الدرجة. (ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ١١٣، هامش (٤)).

(١١) ابن شداد: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١١٢ - ١١٣؛ ابن الشحنة: الدر المختب، ص ٦٧؛

نزهة النواظر، ص ٥٥ - ٥٦؛ محمد أسعد أطلس: الآثار الإسلامية، ص ٤٤.

المشاهد الشيعة في حلب:

اهتم ابن أبي طي بذكر الروايات التي قيلت حول اكتشاف مكان بعض الأضرحة الشيعة من أسرة الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في حلب، وبناء المشاهد حولها بعد ذلك، والقارئ لتلك الروايات يأخذها عليه، لأنه أرجعها كلها لقوى غيبة ومعجزات قل أن تتحقق بعد انقضاء زمن الأنبياء، ولكننا إذا نظرنا بمنظور الشيعة الذين يؤمنون إيماناً تاماً بالإمام علي بن أبي طالب ويعد في رأيهم «خليفة النبي محمد»^(١) - عليه الصلاة والسلام - وله عندهم من القدسية ما تجعلهم يصدقون أية رؤية يتجلى فيها الإمام علي لأحد الشيعة ليخبره عن مكان أحد هذه الأضرحة، ويعطيه الأمارات والدلالات المؤكدة لذلك، خاصة إذا تجلى الإمام أكثر من مرة لرجل واحد، أو لاثنتين في وقت واحد ويخبرهم بنفس البشارة، أو لبعض زائري حلب من «منبج» أو من بلاد المغرب ليكون وقع تصديقه على الحلبيين أعمق، أو نتج عن رؤيته معجزات أخرى لأهل حلب مثل شفاء المريض، أو التوبة عن ارتكاب المعاصي، فهذا كله يجعل من رواية الرجل الذي تجلى له الإمام على هالة مقدسة، ويتوارثها الشيعة جيل بعد جيل ليؤكدوا لأنفسهم أن اعتقادهم في الإمام على حقيقة وأنه يبارك خطواتهم، ويساعدهم على اكتشاف تلك الأضرحة التي تزيد من ارتباطهم به.

وأولى تلك المشاهد التي ذكرها ابن أبي طي هو مشهد الدكّة، وتم اكتشافه في عام ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م في عهد سيف الدولة الحمداني (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٧ م) مؤسس الدولة الحمدانية في حلب (٣٣٣ - ٤٠٦ هـ / ٩٣٥ - ١٠١٥ م)، ومن العجيب أن يتفق اكتشافه في عهد الدولة التي رعت الشيعة في حلب، وسمحت لهم بممارسة شعائهم، حتى صار المذهب الشيعي مذهب الدولة الرسمي^(٢)، ولهذا الاهتمام من قبل

(١) الكاظمي: الشيعة في عقائدهم، ص ٦٠.

(٢) ابن العديم: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٢؛ الغزي: نهر الذهب، ج ١، ص ١٥٥؛ السيد محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج ١، ق ٢، ص ٤١.

سيف الدولة بأمر الشيعة حباه الله بإحدى المعجزات ! فرأى نورا يتكرر على مكان، ثم اكتشف أنه به قبر أحد أولاد الحسين بن علي بن أبي طالب، وتضاربت بعد ذلك أقوال الشيعة حول نسبته إلى الحسين واتفقوا في نهاية الأمر أنه قبر المحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وظل هذا المشهد قائما حتى زمن ابن أبي طي فزاره ونقل ما وجدته مكتوبا على لوحة هذا المشهد، وهذا النص من الروايات المهمة التي كان هو مصدرها.

قال ابن أبي طي عن سبب ظهور المشهد: «وفي هذه السنة يعني سنة إحدى وخمسين و ثلاثمائة، ظهر مشهد الدكة. وكان سبب ظهوره أن «سيف الدولة على ابن حمدان» كان في «إحدى»^(١) مناظره بداره التي بظاهر المدينة، فرأى نورا

ينزل على المكان الذي فيه المشهد عدة مرات، فلما أصبح ركب بنفسه إلى ذلك المكان وحفره فوجد حجرا عليه كتابة: «هذا قبر المحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم»^(٢).

ثم ذكر ابن أبي طي آراء الشيعة حول «المحسن بن الحسين» صاحب المشهد، فقال: «فجمع سيف الدولة العلويين وسألهم: هل كان للحسين ولد أسمه المحسن ؟ فقال بعضهم: ما بلغنا ذلك ! وإنما بلغنا أن فاطمة - عليها السلام - كانت حاملا فقال لها النبي - صلى الله عليه وسلم -: «في بطنك محسن»^(٣). فلما كان يوم البيعة هجموا عليها في بيتها لإخراج على - كرم الله وجهه - إلى البيعة «فأخذت»^(٤).

(١) في كتابات ابن الشحنة «أحد». (نزهة النواظر، ص ٧٥؛ الدر المختب، ص ٨٥).

(٢) ابن شداد: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٤٧-١٤٨؛ ابن الشحنة: نزهة النواظر، ص ٧٥، الدر المختب، ص ٨٥.

(٣) حصر المسعودي أبناء السيدة فاطمة ومن بينهم هذا الاسم. (مروج الذهب، ج ٣، ص ٧٣).

(٤) خديج: أي ناقص الخلق. (ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ٣٣).

وقال بعضهم: «يحتمل»^(١) أن سبى «نساء»^(٢) الحسين لما ورد هذا المكان طرح بعض نسائه هذا الولد. فإننا نروى عن آبائنا أن هذا المكان سمى بجَوْشَن لأن شمر بن ذى الجوشن - «عليه اللعنة»^(٣) - نزل عليه بالسبى والرؤوس^(٤)، وأنه كان معدنا يعمل فيه «التحاس الأصفر»^(٥). وأن أهل المعدن فرحوا بالسبى فدعت عليهم «زينب أخت الحسين» ففسد المعدن من يومئذ^(٦). وقال بعضهم: «إن هذه

الكتابة التي على الحجر قديمة، وأثر هذا المكان قديم، وأن هذا الطرح الذي زعموا لم يفسد، ويقاؤه دليل على أنه «ابن»^(٧) الحسين، فشاع بين الناس هذه المقاطعة التي جرت، وخرجوا إلى هذا المكان، وأرادوا عمارته، فقال سيف الدولة: «هذا موضع قد أذن الله تعالى لي «في»^(٨) عمارته على اسم أهل البيت»^(٩).

(١) ساقطة من نزهة النواظر لابن الشحنة. (ص ٧٥).

(٢) ساقطة من نزهة النواظر لابن الشحنة. (نفس الصفحة).

(٣) إضافة في نزهة النواظر لابن الشحنة. (نفس الصفحة).

(٤) كان ذلك عقب قيام شمر بن ذى الجوشن وآخرون بقتل الحسين بن علي يوم عاشوراء عام ٦١ هـ / ٦٨٠ م في المعركة التي دارت بين قوات الخليفة الأموي يزيد بن معاوية والحسين بن علي عند كربلاء، بسبب رفض الحسين البيعة له، ومبايعة الكثير من أهل الكوفة للحسين، وقتل في هذه المعركة أربعة من أولاد الحسين، وبعث بالرؤوس والنساء والأطفال إلى يزيد بن معاوية، وفي عام ٦٦ هـ ثار المختار بن أبي عبيد الثقفي من قتلة الحسين، وقتل شمر بن ذى الجوشن. (المسعودي: مروج الذهب، ج ٣، ص ٦٤ - ٧١، ٧٨؛ أبو الفداء: المختصر، ج ١، ص ١٨٩ - ١٩١، ١٩٤).

(٥) في نزهة النواظر لابن الشحنة «الصفحة» (ص ٧٥).

(٦) اتفق ياقوت الحموي في المعنى العام لروايته عن «جبل جوشن» مع رواية ابن أبي طي إلى هذا الجزء. انظر: (معجم البلدان، ج ٢، ص ١٨٦).

(٧) ساقطة من نزهة النواظر لابن الشحنة. (ص ٧٦).

(٨) ساقطة من نزهة النواظر لابن الشحنة. (نفس الصفحة).

(٩) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ١٤٨ - ١٤٩؛ ابن الشحنة: نزهة النواظر، ص ٧٥.

ثم قال ابن أبى طى عن زيارته للمشهد: «ولحقت «باب»^(١) هذا المشهد، وهو باب صغير من حجر أسود عليه قنطرة مكتوب عليها بخط أهل الكوفة كتابة عريضة: «عمر هذا المشهد المبارك ابتغاء وجه الله - تعالى - وقربة إليه على اسم مولانا المحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب - عليهم السلام - الأمير الأجل سيف الدولة أبو الحسن على بن عبد الله بن حمدان»^(٢)،^(٣).

ولا يزال هذا المشهد باقيا في حلب، وأصبح يعرف بمشهد الشيخ محسن، ومشهد الطرح، ويقع في غربى مدينة حلب على بعد مائتى متر من مشهد الحسين^(٤)، وعليه

كتابات تتضمن ذكر الأئمة الاثنى عشر، وهى محفورة على الحجارة التى تعلو القبر^(٥).

-
- (١) ساقطة من كتابات ابن الشحنة . (نزهة النواظر، ص ٧٦؛ الدر المختب، ص ٨٦) .
 (٢) ابن شداد : المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٥٠؛ ابن الشحنة : نزهة النواظر، ص ٧٦، الدر المختب، ص ٨٦؛ الغزي : المرجع السابق، ج ٢، ص ٢١٠؛ الأسدي : أحياء حلب، ص ٣٥١ .
 (٣) أورد ابن شداد عقب انتهائه من نص ابن أبى طي عبارة : « وذكر التاريخ المتقدم » ثم سرد بعدها التطورات التى لحقت بالمشهد بعد الدولة الحمدانية ، وهذه العبارة استوقفتنا لأنها تحمل أكثر من معنى ، فقد يكون قصد تاريخ إنشاء المشهد في عام ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م الذى ذكره ابن أبى طي في بداية روايته ، وربما أعاده ابن أبى طي في ختام روايته ، فاختصره ابن شداد بقوله هذه العبارة ، أما المعنى الثانى فقد يكون قصد به « تاريخ ابن أبى طي » ، وهذا يعنى أن اقتباس ابن شداد من كتاب ابن أبى طي لازال مستمرا ، وهنا أصابتنا الحيرة حول نهاية نص ابن أبى طي ، لأن ابن شداد واصل شرح التطورات التى طرأت على المشهد حتى بعد دخول التار حلب ، وسيطرة السلطان يبرس عليها ، ولكننا أمام عدم وضوح المعنى الذى قصده ابن شداد ، وأيضا بسبب تاريخ وفاة ابن أبى طي الغير معلوم فلا نستطيع أن نجزم أن كانت تلك التطورات أوردها ابن أبى طي في كتاباته . (ابن شداد : الأعلام الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ١٥٠؛ ابن الشحنة : نزهة النواظر، ص ٧٦) .
 (٤) الغزي : نهر الذهب، ج ٢، ص ٢١٢؛ الأسدي : أحياء حلب، ص ٣٥١ .
 (٥) محمد أسعد أطلس : المرجع السابق، ص ٥٨ .

مشهد قرنبيًا:

تم اكتشافه أثناء الحكم السلجوقي في حلب في عهد قسيم الدولة آق سنقر (٤٧٩ - ٤٨٧ هـ / ١٠٨٦ - ١٠٩٤ م)، بعد أن تكررت رؤية الإمام على بن أبي طالب لأحد شيوخ منبج، وأعطاه الأمارات الدالة على هذا المكان. قال ابن أبي طي عن ظهور هذا المشهد: «وسبب بناء قسيم الدولة لهذا المشهد أن شيخا من أهل منبج رأى في حلب عدة مرار كأن على بن أبي طالب - عليه السلام - يصلي فيه، وأنه قال: «قل لأق سنقر يبنى على «قرنبيًا»^(١) مشهدا». وقرنبيًا اسم الربوة، فقال الشيخ لعلي عليه السلام: «ما علامة ذلك؟ فقال: أن تكشف الأرض، فتظهر أرض معمولة بفص المرمز والرخام. وفيها محراب مؤسس، وقبر على جانب المحراب فيه بعض ولدى. فلما تكررت هذه الرؤيا على الشيخ شاور جماعة من أصحابه، فأشاروا عليه أن يتعرض له، فخرج إليه في جماعة، فلما رأهم أنفذ إليهم حاجبه، وسألهم: ما حاجتهم؟ فأخبروه برؤيا الشيخ، فأمر وزيره بكشف الموضع فكشفه، ورأى الأمارات على ما حكاه من الرؤيا، فبناه، ووقف عليه وقفًا، وكان يتردد إليه^(٢).

مشهد على بن أبي طالب:

قتل الخليفة على بن أبي طالب في بلدة الكوفة بالعراق في رمضان عام ٤٠ هـ / ٦٦١ م، واختلفت الآراء حول مكان قبره، والرأي الأكثر شيوعًا أنه دفن في الكوفة في منطقة «النجف»^(٣)، وقيل أيضًا دفن في نواحي أخرى بالكوفة، ف قيل دفن مما يلي قبلة المسجد بها، وقيل عند قصر الإمارة، وهناك رأى آخر ذكر أن ابنه الحسن نقله إلى المدينة المنورة، واعتبروه لذلك أول من حول من قبر إلى قبر، وهناك رأى آخر ذكر أن مكان دفنه غير

(١) قرنبيًا: كان هذا الموضع قديما يعرف بمقر الأنبياء فحرفته العامة، وهو يقع في شرق مدينة حلب (ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ١٤٣ - ١٤٤).

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٧١؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ١، ص ١٨١؛ الكاظمي: المرجع السابق، ص ٥٤.

معلوم، لأنه أثناء حمله إلى المدينة المنورة ضلت الدابة الطريق^(١):

وهذا رأى الأخير فتح الباب أمام الشيعة للبحث عن مكان قبره، ولهذا ظهر رأى ذكره ابن أبي طي عن والده، أكد فيه اكتشاف قبر على بن أبي طلب في حلب، في عام ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م في عهد أتابك عماد الدين زنكى.

ونظرا لأهمية وقدسية هذا الاكتشاف للمسلمين عامة، والشيعة في حلب خاصة، فقد فاقت الروايات التى ذكرها ابن أبي طي عن ظهوره كل رواياته الأخرى عن اكتشاف الأضرحة، وغاب فيها العقل أمام رغبة الشيعة في حلب في تصديق أن الإمام على حياهم بهذا الشرف، فتناقلوا تلك الروايات، وفيها تجلى على بن أبي طالب لاثنتين من أهل حلب، وأخبرهما بنفس الأمارات الموضحة لمكان مدفنه، وحقق أيضا أثناء رؤية الأول له معجزة وشفاه من المرض، أما الثانى فقد تأثر من رؤيته وتاب عن شرب الخمر

قال ابن أبي طي: «في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة»^(٢) ظهر مشهد «الإمام»^(٣) على «بن أبي طالب»^(٤) - رضى الله عنه - الذى على «باب الجنان»^(٥) «يعنى بحلب»^(٦)،^(٧).

(١) المسعودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥٨؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ١، ص ١٨١؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢١٧-٢١٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٢٥٤؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٧٦.

(٢) أورد ابن الفرات خبر ظهور هذا المشهد في أحداث عام ٥٢١ هـ. (تاريخ الدول والملوك، م ١، ج ٢، ورقة ١١٣).

(٣) إضافة من ابن الفرات. (المصدر نفسه).

(٤) إضافة من ابن الفرات. (المصدر نفسه).

(٥) باب الجنان: يلي باب الفراديس في غرب مدينة حلب، وسمي بذلك لكونه يُخرج منه إلى البساتين وله بابان. (ابن شداد: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٧٤).

(٦) إضافة من ابن الفرات. (المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ١١٣).

(٧) ابن شداد: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٤٦؛ ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ١١٣.

ثم قال: «وحدثني أبي - رحمه الله - قال^(١): «وكان في مكان يباع فيه الخمر^(٢)، واتفق أن بعض «أهل حلب»^(٣) رأى في النوم، وكان مريضاً بحمى...»^(٤) من مدة طويلة كأنه في ذلك المكان، وكان رجلاً يقول له: «أى شئ تشكو؟» فقال: «الحمى» فمد يده إلى تراب من ذلك المكان وقال: «خذه وعلقه عليك، فإنك تبرأ، وقل للناس يعمرّون ههنا مشهداً». فقال: «يل مولاى! ما يقبلون مني». فقال: «يحفرون ههنا فإنهم يجدون صخرة جميع ما حولها من التراب يكون فيه رائحة المسك». فقال له: «ومن أنت؟» قال: «أنا على بن أبي طالب». فاستيقظ الرجل، وقد زالت عنه الحمى، فحدث لأهله بذلك، وأصبح، وخرج إلى ذلك المكان، ووقف يحدث الناس^(٥).

ثم قال: «وكان بحلب رجل يقال له «شقيق السوادي»، «وكان»^(٦) يحمل السواد إلى البساتين، وكان فيمن حضر، «فجاء إلى الناس وقص عليهم أنه رأى علياً - رضى الله عنه - وأنه قال له: «أعمر في المكان الفلاني مشهداً، وذكر الصخرة على وفق ما ذكره ذلك الرجل»^(٧) فنبشوا المكان، فكان التراب يخرج كأنه المسك، {فتطيب به}^(٨) الناس، «وجعلوه في أقمشتهم، وكانوا يتطيّبون به»^(٩) وتاب شقيق «عما كان يرتكبه من شرب الخمر، وتولى عمارة المشهد»^(١٠)»^(١١).

(١) إضافة من ابن الفرات . (المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ١١٣).

(٢) في رواية ابن الفرات: «كان يباع في ذلك المكان الخمر». (المصدر نفسه).

(٣) في رواية ابن الفرات: «الحلبين». (المصدر نفسه).

(٤) ذكر ابن الفرات كلمة بعد الحمى غير واضحة لنا (المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ١١٣).

(٥) ابن شداد: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٤٦؛ ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ١١٣.

(٦) إضافة من ابن الفرات . (المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ١١٣).

(٧) إضافة من ابن الفرات . (المصدر نفسه).

(٨) في رواية ابن الفرات: «أخذه». (المصدر نفسه).

(٩) إضافة من ابن الفرات . (المصدر نفسه).

(١٠) إضافة من ابن الفرات . (المصدر نفسه). وكان ابن شداد قد لخص هذه العبارة فقل: «عن أمور

كان يعتمدها من الفساد، وتولى عمارة المكان». (الأعلاق الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ١٤٧).

(١١) ابن شداد: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٤٧؛ ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ١١٣.

ثم قال: «وصار على قدم عظيم من الدين وحفظ القرآن، ولم يزل مقيماً بأمور المشهد إلى أن مات. وعمر أيضاً مشهداً آخر من شمالي الجسر الذي قدام باب الجنان وشرقي النهر»^(١).

مشهد الحسين:

قتل الحسين بن علي بن أبي طالب في كربلاء بالعراق في يوم عاشوراء عام ٦١ هـ / ٦٨٠ م، ودفن جسده هناك، أما الرأس فأرسل إلى الخليفة الأموي «يزيد بن معاوية بن أبي سفيان» (٦١ - ٦٤ هـ / ٦٨١ - ٦٨٣ م) في دمشق، واختلفت الآراء بعد ذلك حول مكان دفنه، فقيل دفن بالمدينة المنورة، وقيل عند «باب الفراءيس»^(٢)، وقيل أيضاً في مدينة عسقلان، ومنها نُقل إلى مصر في جمادى الآخر عام ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م، في عهد الخليفة الفاطمي الظافر بأمر الله (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ / ١١٤٩ - ١١٥٤ م)^(٣).

ومن الآراء الأخرى التي قيلت حول مدفن رأس الحسين، رأى ذكره ابن أبي طي، وأوضح فيه أنه اكتشف في سفح جبل جوشن بحلب، في عهد الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي (٥٦٩ - ٥٧٧ هـ / ١١٧٤ - ١١٨١ م)، في شهر ذي الحجة عام ٥٧٣ هـ / ١١٧٨ م، وأرجع أيضاً سبب اكتشافه إلى رؤية رآها أحد الرعاة القاطنين بدرب المغاربة في حلب، وهذه الرؤية من أضعف الروايات التي أوردها ابن أبي طي، وقد ثبت بعد ذلك عدم جدواها، حيث ذكر «ابن الشحنة» أن هذا المشهد لم يكن مشهد الحسين، وإنما هو المشهد المعروف «بالنقطة»^(٤)، أما مشهد الحسين فاكشف بالقرب

(١) إضافة من ابن الفرات (المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ١١٣).

(٢) باب الفراءيس: يقع في غرب مدينة حلب (ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ٧٤).

(٣) المسعودي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٠-٧١؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٠.

١٩١؛ المقرئ: اتعاظ الخفا، ج ٣، ص ٢٢، ٢٠٧ هامش (٣)؛ السيوطي: الخلفاء، ص ٣٤٧؛

الكاظمي: المرجع السابق، ص ٥٤.

(٤) مشهد النقطة: سمي بذلك لأنه قيل عندما وصلت رأس الحسين إلى جبل جوشن وضعت علي

منه^(١)، ولا يزال باقيا في حلب، وهو من أجل آثارها، وقام الشيعة

بتجديده بين عامي ١٩٧٨ و ١٩٨٣، وتقام فيه شعائر يوم عاشوراء^(٢).

قال ابن شداد عند عرضه رواية ابن أبي طي عن هذا المشهد: «وهو في سفح جبل جوشن، وكان السبب في إنشائه ما حكاه يحيى بن أبي طي في تاريخه: «أن رجلا راعيا يسمى «عبد الله» يسكن في «درب المغاربة»، وكان يخرج كل يوم لرعى الغنم، فنام في يوم الخميس العشرين من ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة بعد صلاة الظهر، فرأى في نومه في المكان الذي بنى فيه المشهد كأن رجلا أخرج نصفه من شقيف الجبل المطل على المكان، ومد يده إلى الوادي وأخذ عزرا. فقال له: يا مولاي! لأى شئ أخذت هذه العترة وليست لك؟ فقال: «قل لأهل حلب يعمرّون في هذا المكان مشهدا، ويسمونه «مشهد الحسين». فقال: «لا يرجعون إلى قولي». فقال: «قل لهم يحفرون هناك»، ورمى بالعتز من يده إلى المكان الذي أشار إليه. فلما استيقظ رأى العترة قد غاصت قوائمها في المكان، فجذب العترة، فظهر الماء من مكان قوائمها، فدخل حلب، ووقف على باب الجامع القبلي، وحدث بها رأى. فخرج جماعة من أهل البلد إلى المكان الذي ذكر فرأوا العلامة على ما وصف

الأرض، فسالت منها قطرة دم فوق صخرة، فبنى عليها الحلبيون هذا المشهد، وهذا المشهد لم يعد له أثر، وقيل أن هذه الصخرة نقلت بعد خراب المشهد إلى مشهد الحسين بحلب. (الغزي: نهر الذهب، ج ٢، ص ٢١٢؛ الأسدي: أحياء حلب، ص ١٧٦).

(١) ابن الشحنة: نزهة النواظر، ص ٧٨. كان ابن الشحنة قد اعتمد في روايته عن مشهد الحسين علي رواية ابن أبي طي التي أوردها له ابن شداد، ثم قطع اقتباسه من ابن شداد، وذكر رأيه عن المشهد الذي ذكره ابن أبي طي، وأوضح أنه مشهد النقطة وليس مشهد الحسين، ثم واصل اقتباسه من ابن شداد، ومن الجدير بالذكر أن تشير إلي أن الغزي اعتمد في روايته عن مشهد الحسين علي ابن الشحنة ولم يفرق بين رأي ابن أبي طي ورأي ابن الشحنة، ثم وصف رواية ابن أبي طي بالاضطراب (الغزي: نهر الذهب، ج ٢، ص ٢١٢؛ محمد أسعد: الآثار الإسلامية، ص ٧٠).

(٢) الغزي: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢١٢-٢١٣؛ محمد أسعد أطلس: المرجع السابق، ص ٧٠؛ الأسدي: المرجع السابق، ص ٣٥٠.

وكان هذا الموضع الذي ظهرت فيه العين في غاية الصلابة بحيث أنه لا تعمل فيه المعاول، وكان به معدن النحاس قديماً، فأنبطوا العين فثرت وغزر ماؤها^(١). ثم خطوا في ذلك المكان المشهد المذكور، وتولى عمارته «الحاج أبو نصر الطباخ» وأخذ له الجمال يوسف بن الإكليلي طالعا يوم الشروع فيه، فكان القمر في الأسد على تثليث المشتري^(٢)،^(٣).

موقف الشيعة الإمامية في حلب من المذاهب والفرق الأخرى فيها:

تناول ابن أبي طي في كتاباته علاقة الشيعة الإمامية في حلب - الذين كانوا على حد قوله أغلبية أهلها في مطلع القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي - بغيرهم من المذاهب بها، فأمدنا بتفاصيل مهمة عن علاقتهم بالصوفية من أهل السنة من خلال كتاباته عن إنشاء أول «خانقاه»^(٤) في حلب، كما تناول علاقة الشيعة الإمامية مع الشيعة الإسماعيلية من خلال مواقفهم من محاولات الإسماعيلية إقامة مقر لهم في حلب.

١ - خانقاه البلاط:

(١) أورد ابن الشحنة ملخصاً لرواية ابن أبي طي حتى هذا الجزء - (نزهة النواظر، ص ٧٨).

(٢) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ١٥٢ - ١٥٣؛ الغزي: المرجع السابق، ص ٢١١؛ الأسدي: المرجع السابق، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٣) في اعتقادنا انتهى اقتباس ابن شداد من نص ابن أبي طي هنا، لأنه حدثنا بعد ذلك عن ما ذكره جده «الشيخ إبراهيم بن شداد بن خليفة بن شداد» عن بناء المشهد، ثم تناول التطورات التي طرأت عليه حتى عهد الظاهر بيبرس، ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن بعض المراجع الحديثة - ومنها «الغزي» - نسبت النص كله لابن أبي طي. (ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ١٥٣ - ١٥٦؛ الغزي: نهر الذهب، ج ٢، ٢١١ - ٢١٢؛ محمد أسعد أطلس: الآثار الإسلامية، هامش (٢)، ص ٦٩ - ٧٠؛ الأسدي: أحياء حلب، ص ٣٤٩ - ٣٥٠).

(٤) الخانقاه أو الخانكاه: كلمة فارسية معناه بيت، وقيل أصلها خونقاه، وهو الموضع الذي يأكل فيه الملك، وهي حدثت في الإسلام في حدود الأربعمئة من الهجرة، وانفرد بها خواص أهل السنة الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة وعرفوا باسم «المتصوفة»، وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى. (المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٤١٤).

من الآثار الدينية التى تناولها ابن أبى طى فى حلب كان بناء أول خانقاه للصوفية بها فى عام ٥٠٩ هـ / ١١١٥ - ١١١٦ م، وهى خانقاه «البلاط»^(١)، وروايته عنها تعد من أهم الروايات التى أوردها عن تاريخ حلب، لأنه كشف من خلالها كثير من الجوانب المهمة عن المجتمع الحلبى، وعن موقف الشيعة من بناء الخوانق، وانفرد بكل هذه التفاصيل، واعتمد فيها على روايات والده وجده الذين كانوا معاصرين لتلك الأحداث، وفاقت روايته الروايات الأخرى التى أشارت فقط إلى بناء هذه الخانقاه^(٢).

بدأ ابن أبى طى روايته بذكر قيام لؤلؤ الخادم - القائم بتدبير أمور حلب - فى ذلك الوقت - ببناء الخانقاه، ثم حدد موقعها، وعدد أبوابها، فقال: «وفيهما شرع الأمير لؤلؤ صاحب حلب فى عمارة الخانقاه التى فى «البلاط» من قبل المدرسة المستجدة فيه أيضا، ولها بابان، باب يخرج إلى مقابل دار «الوزير النحاس»^(٣)، وباب يخرج إلى رحبة سوق البلاط، وهى أول خانقاه بنيت بحلب»^(٤).

ثم تناول ابن أبى طى موقف الشيعة الإمامية من بناء هذه الخانقاه، وأوضح أنهم رفضوا هذه الفكرة رفضا تاما، وعللوا رفضهم بعدة أسباب: اجتماعية، واقتصادية وسياسية، ودينية، فقال: «فتقل ذلك على جماعة الحلبين من الشيعة وأشفقوا منه، ومشى بعضهم إلى بعض، وقالوا إنا نكره مجاورة هذه الطائفة، فأنهم أهل بطالة، مع ما فيه من تطرق الغريب إلى السكنى بحلب وكشف أحوالنا»^(٥)، وصرف أولادنا عما هم معتادوه من

(١) البلاط: محلة بحلب. (ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٩).

(٢) ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٧؛ ابن شداد: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٣٣.

(٣) هو أبو نصر محمد بن الحسن بن النحاس: قبض عليه وقتل فى عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م. (ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ١١٠).

(٤) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ٩١.

(٥) أساس التصوف هو الانقطاع لعبادة الله تعالى، ولهذا وفر لهم القادرين من أهل السنة كسب عيشهم من خلال الأوقاف التى وقفوها على الخوانق التى كانوا يقيمون بها، ولهذا وصفهم الشيعة بالبطالة وكان يقيم بهذه الخوانق أيضا الفقراء الصوفية القادمين من مختلف أنحاء البلاد الإسلامية، ولهذا

شظف العيش وخشونة المأكّل والملبس، وأن سكّنى هذه الطائفة تُعَبّ على المشاحنة والعصبية ووقوع الفتن^(١).

ثم أكد ابن أبي طي هذه الأسباب مرة أخرى من خلال ما حدثه به أباه عن جده حول طبيعة المجتمع الحلبي من جميع الجوانب في مطلع القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، وهي من الروايات المهمة التي رواها عن والده، الذي كان معاصرا لتلك الفترة، وبدأ روايته بتوضيح التقسيم المذهبي بها، فقال: حدثني أبي بذلك عن أبيه بهذه الحكاية، وقال لي أبي وقد سألت عن سببه فقال: أسبابه كثيرة، فإن أهل حلب كان أكثرهم إمامية، وما فيهم إسماعيلية ومصريين، وفيهم الأقل من أهل السنة، فكلهم كرهوا ذلك مذهباً وعصبية^(٢).

ثم واصل ابن أبي طي رواية والده عن طبيعة المجتمع الحلبي في المأكّل والملبس، ومنها يظهر ما كانوا هم عليه من التقشف - وسوف يذكر والد ابن أبي طي أسباب ذلك في ختام روايته - قال ابن أبي طي: «وأيضاً فإن أهل حلب كانوا منفردين عن أخلاق الناس في المأكّل والملبس والعشرة، أما مأكّلهم: فاللحم «بالأدام»^(٣) المعروفة المتعاهدة، «كالساق»^(٤)، و«حب الرمان» وفطيرهما. وحدثني أبي أنه ما عرف أحد في حلب «حلواء السكر»، ولا عملت إلى قريب أيام «السلطان نور الدين

اعترض الشيعة علي مجاورة الصوفية. (المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٤١٤-٤١٥).

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ٩١.

(٢) المصدر نفسه والورقة.

(٣) الأدمة: بضم الألف «الخلطة»، والأدم بضم الألف: ما يؤكل بالخبز أي شيء كان. (ابن منظور:

لسان العرب، ج ١، ص ٩٥-٩٦).

(٤) السّاق: له ثمر حامض به عناقيد فيها حب صغار يطبخ ويتبت بالشام (المصدر نفسه: ج ٦، ص

ابن زنكي^(١)؛ وكانت ملابسهم: القطن والكتان، وعمائم القطن و..... الحمر، وكان ملابس الكبرا والعدول الثياب «الملحم»، والعمائم الكبار....، وحدثني أبي قال:.... أكثر الحلبيين وهم بالأحنك على هيئة العرب^(٢).

ثم شرح والد ابن أبي طي لهجة الحلبيين في كلامهم، ومدح أخلاقهم، كما علل أسباب تقشفهم في المأكل والملبس، وأمدنا أيضا بمعلومة مهمة توضح استعداد الحلبيين العسكري الدائم لخوض المعارك، قال ابن أبي طي: «والغالب في كلامهم عقد القاف... اشيا من أحوالهم يطول شرحها من طهارة رجالهم ونسائهم من الفساد، واشتغالهم على الديانة والعفاف». ثم قال ابن أبي طي: «فقلت:.... كانوا يصنعون ذلك أم جهلا؟ فقال: إنما كانوا يصنعون ذلك مُدَاراة عن أموالهم وحراسة لها، وكانوا يغرمون في القطايع التي للفرنج جُل أموالهم. وكان في آخر وقت في زمن الأمير «زنكي»^(٣)

(١) هو أبو القاسم محمود بن زنكي الملقب بالملك العادل نور الدين: ولد في عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م وتولي حلب بعد مقتل والده في عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، وامتدت دولته وشملت العديد من البلاد الإسلامية والتي استردها من الصليبيين، وسوف تتناول كتابات ابن أبي طي العديد من هذه الفتوحات وسنوردها ضمن أحداث كتاباته عن الدولة الأتابكية. وكان نور الدين محمود قد قام ببناء العديد من المدارس والبيمارستانات في حلب ودمشق، وأوقف أوقافا عديدة علي المرضي ومعلمي الخط والقرآن وساكنتي الحرمين، وأقطع أمراء العرب ليكنفوا عن مهاجمة احجاج؛ كما كان كثير القراءة في الكتب الدينية؛ وكل هذه الأعمال جعلت «ابن الأثير» يضعه في أعلي مكانة خلف الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز، وتوفي نور الدين محمود في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م. (ابن الأثير: الباهر، ص ١٦٣، ١٧٠؛ أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ١، ص ٩- ١١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ١٨٤- ١٨٥، ١٨٧؛ ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٨٠٠).

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ٩١.

(٣) هو أبو الجود عماد الدين زنكي بن آق سقتر الملقب بالملك المنصور: ولد في حدود عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م وتوفي والده وهو في العاشرة من عمره، فتربى في كنف أمراء الموصل. ثم تولى بعض المناصب في الخلافة العباسية، ومنها شرطة البصرة في عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م وشرطة بغداد في عام ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م، ثم تولى الموصل في عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م، واتسعت دائرة ملكه فاشتملت علي بلاد الجزيرة وحلب وحماه. وخاض العديد من المعارك الصليبية، وكان من أهمها

«أتابك»^(١) لا يتمكن أحد من لبس ثوب فاخر وعمامة فاخرة حتى نؤدي عن ذلك جعلهم إلى الرئيس يقام به....، قال أبي: ولم يكن يومئذ أحد بحلب إلا وعنده آلة الحرب، فإذا حضرت الحرب خرج إليها الناس من غير استدعاء»^(٢).

وبعد أن انتهى والد ابن أبي طي من وصف المجتمع الحلبي أكد مرة أخرى أسباب رفضهم بناء هذه الخانقاه، قال ابن أبي طي: «وكان أعظم إنكار الحلبيين بناء الخانقاه دخول الفساد على أولادهم ونسائهم من سكنى الغريب من طهرانيهم، وقد شاهدنا الناس وقد صاروا من الفساد إلى الغاية التي كرهوها»^(٣).

ثم عرض ابن أبي طي تفاصيل المقاومة التي حدثت من جانب الشيعة أثناء قيام لؤلؤ الخادم ببناء الخانقاه، والإجراءات التي اتبعها بعد ذلك مع المعارضين من الشيعة حتى ينتهي من بنائها، كما أورد ابن أبي طي أول من دخل الخانقاه من مشايخ الصوفية فقال: «و بلغ لؤلؤ إنكار الحلبيين بناء الخانقاه فألح في عمارتها، فاجتمع جماعة من الحلبيين إليها في الليل وهدموها، وبلغ ذلك لؤلؤ فاءمر بجماعة من الحلبيين فاعتقلوا حتى تمت عمارتها، وأجلس فيها شيخ الشيوخ أبا الحجاج يوسف بن الربيع المروزي»، وهو أول من دخل حلب من مشايخ الصوفية»^(٤).

نجاحه في استرداد إمارة الرها الصليبية في عام ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م. وقتل زنكي أثناء حصاره قلعة جعبر في عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م. (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ١، ص ٦٧، ٦٨، ٧٣. ٧٤، ٧٥، ٧٨، ١٠٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٢٧-٣٢٨؛ ابن وأصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٨، ٣٠).

(١) أتابك: يعني الولد الأمير. وأول من لقب به «نظام الدولة» وزير السلطان «ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي» (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م)، عندما فوض إليه ملكشاه تدبير أموره في عام ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م. (القلقشندي: صبح الأعشي، ج ٤، ص ١٨).

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ٩١-٩٢.

(٣) المصدر نفسه، ورقة ٩٢.

(٤) المصدر نفسه والورقة.

هكذا أوضح ابن أبي طي من خلال رواية والده تفاصيل بناء أول خانقاه للصوفية في حلب، وكما رأينا فقد ظهر من خلالها أحد أوجه الخلاف بين مذهبي الشيعة والسنة من ناحية، ومن ناحية أخرى كشفت الرواية مدى حرص الشيعة الإمامية في حلب في مطلع القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي على الحد من انتشار المذاهب الأخرى بها.

وقد لفت انتباهنا انه كان من بين مؤلفات ابن أبي طي كتابا بعنوان: «أخلاق الصوفية»^(١)، ولعله بعد قرن تقريبا من بناء الخوانق في حلب، قرر أن يكتب ما لاحظته عن الصوفية، ونعتقد انه اختلف فيه فكره عن والده، لانتشار المذهب السني في حلب وتقلص المذهب الشيعي بها في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي.

العلاقة بين الشيعة الإمامية والإسماعيلية في حلب:

أظهرت كتابات ابن أبي طي عن فرقة الإسماعيلية الشيعية في حلب مدى كراهية الشيعة الإمامية لهم، وقبل البدء في عرض تفاصيل هذا الموضوع، نوضح أولا نبذة عن انتشار المذهب الإسماعيلي في حلب.

كان الملك «فخر الملوك رضوان بن تتش بن ملكشاه» (٤٨٨ - ٥٠٧ هـ / ١٠٩٥ - ١١١٣ م) أول من شجع الإسماعيلية على الاستقرار في حلب، واستعان بهم في أموره وتزعمهم أولا «الحكيم المنجم»، وبعد وفاته في عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ - ١١٠٣ م قام بأمرهم رفيقه «أبو طاهر الصائغ العجمي»، وبعد وفاة الملك رضوان بن تتش في عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م بدأت السلطة في حلب تتخذ موقفا لتحد من انتشار الشيعة الإسماعيلية فيها، فقام الملك «ألب أرسلان بن رضوان»، بإلقاء القبض على أبي طاهر الصائغ وقتله، كما قبض أيضا على عدد كبير من الإسماعيلية^(٢).

(١) الكتيبي: فوات الوفيات، ج ٤، ص ٢٧٠.

(٢) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٢٤٢، ٣٠٢؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨ ص ٢٦٧، ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٧، ١٦٨-١٦٩؛ ابن شداد: المصدر السابق، ج ١، ق ١،

ومع ذلك أخذت أعدادهم تزداد عاما بعد عام حتى أصبحوا بحاجة إلى مقر خاص لهم في حلب، وهنا كشف ابن أبي طي في نص يعد من أهم كتاباته عن حلب، عن موقف ثلاثة من رؤساء حلب، وهم: نجم الدين إيلغازي بن أرتق (٥١٢-٥١٦ هـ / ١١١٨-١١٢٣ م)، وأتابك عماد الدين زنكي (٥٢٢-٥٤١ هـ / ١١٢٨-١١٤٦ م)، ونور الدين محمود بن زنكي (٥٤١-٥٦٩ هـ / ١١٤٦-١١٧٤ م)، من طلب الإسماعيلية بتخصيص هذا المقر، كما أوضح أيضا من خلاله طبيعة العلاقة بين الشيعة الإمامية والإسماعيلية في حلب.

وقد لاحظنا من خلال رواية ابن أبي طي أنهم جميعا لم يصرحوا برفضهم لطلب الإسماعيلية، وإنما كانوا يجرضون الحلبيين على هدم وتخريب المكان الذي حدده الإسماعيلية، ويجعلون من ذلك سببا لرفض طلبهم، لأنهم لا طاقة لهم بمواجهة أهل حلب، ولعل ملوك حلب لجئوا لهذا الأسلوب في علاقتهم مع الإسماعيلية لانتفاء الفتن والاضطرابات التي يحدثوها واشتهروا بها في بلاد الشام والمشرق الإسلامي.

وقد بدأ الإسماعيلية في طلب هذا المقر في عام ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م، وحدد زعيمهم

«أبو محمد» للملك نجم الدين إيلغازي «قلعة الشريف»^(١) لتكون مقرا لهم، وقد انفرد ابن أبي طي بذكر التفاصيل الموضحة لهذا الموضوع، وبدأ روايته بعرض المراسلات التي دارت بين نجم الدين إيلغازي ورسول الإسماعيلية، بأسلوب يصور الأحداث كما

ص ٦٥.

(١) قلعة الشريف: أسسها «الشريف أبو علي الحسن بن هبة الله الهاشمي المعروف بالحثيبي»، رئيس حلب، في صفر عام ٤٧٨ هـ / ١٠٥٨ م، خوفا على نفسه من الحيين، حيث كان قد انفرد بتدبير أمر حلب بعد مقتل ملك حلب «مسلم بن قريش العقيلي» في ذلك الشهر، وقام سالم بن مالك العقيلي بأمر قلعة حلب، فبنى لذلك القلعة، واقتطعها من مدينة حلب، وبنى بينها وبين المدينة سورا، وحفر خندقا. (ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٦٨، ٩٢، ٩٥، ٩٦؛ ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ٦٤-٦٥).

حدثت، وكشف من خلالها عن حقيقة موقف نجم الدين إيلغازي من طلب الإسماعيلية، والخطة التي نفذها حتى لا يصرح لهم برفضه لطلبهم، ولعله اتخذ هذا القرار حتى لا يعادى الشيعة الإمامية في حلب.

قال ابن أبي طي: «خرج رسول «أبي محمد» رئيس الإسماعيلية بحلب إلى ماردين إلى عند الأمير «نجم الدين يلغازي» ومعه هدية سنية، وقود كثير، ومعه كتاب من أبي محمد، وكان بينه وبين يلغازي مصادقة، يقول فيه: «إننا ضيوفك وقد كثرت تقلبتنا ونريد أن تمن علينا بإطلاق «قلعة الشريف» لتخذها مسكننا ومكلاذا ناوى إليه». فقال الأمير يلغازي للرسول من غير توقف ولا تؤذه: والله قد أمرت البارحة بهدمها، ولو تقدم قدومك لسلمتها إليكم. والتفت إلى كاتبه وقال: أكتب له كتابا بتسليم القلعة إليهم إن كانت على حالها، وفهم الكاتب مراده، فتباطىء بالرسول وأمر الأمير يلغازي كاتبه أن يكتب على جناح طائر يهدم السور الذي بينها وبين حلب، ويقصر سورها الخارج، وأن يصلب جماعة من أهل الحبوس الذي وجبت عليهم الديات، وليشاع أنهم كبسوا فيها وأرادوا تسليمها إلى الفرنج، وأن تصعد إليها جماعة من وجوه الحلبيين بيوتهم وأهاليهم، وأن لا يؤخر ذلك. وكتب للرسول كتابا في آخر النهار وأرسله، فجاء فوجدوها قد انهدمت، وقد سكنها جماعة من وجوه الشيعة والسنة، فأعادوا الرسالة: نحن نأخذها ونعمرها. فقال لهم: هذا ثغر قريب من الفرنج وقد صعد إليه وجوه المدينة وأهل الدين ولا يمكننى مناصبتهم فأنى أخاف أن يفسد حال البلد ولو أنكم أتيتموني في السر، ولا تظهرون ذلك لكنت بلغتكم عرضكم»^(١).

ثم تناول ابن أبي طي موقف أهل حلب والقاضي ابن الخشاب من إشاعة خبر طلب الإسماعيلية قلعة الشريف، ومن خلال ذلك كشف عن طبيعة العلاقة بين الشيعة الإمامية والشيعة الإسماعيلية، في رواية مهمة حدثه بها والده وشارك فيها أيضا، فقال:

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ٣٩-٤٠.

وحدثني أبي أيضا قال: لما أنفذ أبو محمد إلى يلغازي يطلب قلعة الشريف شاع هذا الخبر في حلب، فاجتمع جماعة الحلبيين وقالوا: أن حصلت هذه القلعة في أيدي الإسماعيلية ملكوا حلب، والصواب أن نجتمع ونخرب السور الذي بينها وبين حلب، ونسد الخندق ونجعلها من جملة البلد، فجمعهم ابن الخشاب وخربها، ولهذا السبب قتلته الإسماعيلية كما سنذكره إن شاء الله تعالى. ثم قال ابن أبي طي: وحدثني أبي قال: أنا في جملة الذين هدموها^(١).

وقد تناول ابن العديم هذا الموضوع بإيجاز، وتركزت روايته على تنفيذ قرار «نجم الدين إيلغازي» بهدم القلعة^(٢).

ثم عرض ابن أبي طي موقف أتابك عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود من طلب الإسماعيلية بتخصيص مقر لهم في حلب، وأوضح أيضا رفضها لهذا الطلب.

فقال ابن أبي طي عن سبب رفض أتابك زنكي - والذي حدثه به والده - قال: حدثني أبي قال: وجرى في أيام «أتابك زنكي» كذلك وطلبها (قلعة الشريف) منه، فاعتذر بأن أهل الدين قد سكنوها، ولا يمكنني أن أجعل على نفسي شناعة^(٣).

أما بالنسبة لعلاقة نور الدين محمود والإسماعيلية، فقد جددوا أيضا في عهده طلبهم بتخصيص مقر لهم، وطلبوا منه «حصن جبل بيت لاه»^(٤)، وقد أوضح ابن أبي طي أنه أتبع معهم نفس أسلوب «نجم الدين إيلغازي»، حيث عهد إلى أهل «جبل سمعان» بتدمير الحصن، وبمقاومة قوات الإسماعيلية، فقال: وحدثني أبي أيضا أن الإسماعيلية طلبوا من نور الدين محمود بن زنكي «جبل بيت لاه» ليعمروا حصنه، فأرسل نور الدين إلى أهل جبل «سمعان» وبلده في السر وأعلمهم ما عزم عليه الإسماعيلية، وأنهم متى ملكوا

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ٤٠.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩٩.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ٤٠.

(٤) بيت لاه: حصن عال بين أنطاكية وحلب. (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٢١).

هذا المكان ملكوا جميع البلاد، وأمرهم أن يصعدوا جميعهم إلى جبل بيت لاهاء وتمنعوه منه، ويقاثلون من يصل إليهم لطلبه بحيث يشاهد ذلك رسول الإسماعيلية، فصار إلى بيت لاهاء من تلك الناحية جماعة كثير في أكمل عدة وعدد وقالوا: لا نسلم هذا المكان إلى أحد، واخذوا في قلع أساس الحصن الذي طال على الجبل، وأخرجوا أكثر الحجارة بالنار، فقال نور الدين للإسماعيلية أنا رجل من

المسلمين، وقد قام الجمهور على لما سمعوا أنكم تريدون هذا الموضع ولا طاقة لي بجميع الناس، فأقطع يأس الإسماعيلية منه»^(١).

ثم ختم ابن أبي طي روايته عن هذا الموضوع بعبارة تشير إلى مدى كراهية الشيعة الإمامية للشيعة الإسماعيلية، فقال: «ما وفق الله تعالى الأمير يلغازي والأمير عماد الدين زنكي أتاك ولده الملك العادل نور الدين محمود من الصواب.... من هذا الطريق الذي صدوانه هذه الطائفة الملحدة الخبيثة لكانوا قد استولوا على هذه البلاد ومرت دعوتهم الخبيثة في الوهاد....، ولكن الله تعالى حافظ هذا الدين من زيغ المعاندين وفساد الملحدين أسأله إتمام توفيقه وحسن.....»^(٢).

كما أشار ابن أبي طي في رواية أخرى إلى سوء العلاقة بين الإمامية والإسماعيلية من خلال ذكره ترجمة القاضي ابن الخشاب، الذي اغتالته فرقة الإسماعيلية في عام ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م، بسبب دوره في هدم قلعة الشريف.

قال ابن أبي طي: «كان أبو الفضل بن الخشاب القاضي من الفضل والكرم والدين بالرتبة العليا، قتله الإسماعيلية في رأس «درب الزجاجين» من... عند باب المدرسة الغربية خرجوا عليه من الدرب، وكان سبب ذلك أن الإسماعيلية نقموا عليه تخريب قلعة الشريف التي كانت بحلب، وكان قتله بعد «عشا الآخرة» لأنه كان بالجامع فلما صلى عشا الآخرة

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ٢، ورقة ٤٠.

(٢) المصدر نفسه والورقة.

وعاد إلى بيته وثبوا عليه فقتلوه فى سنة تسع عشرة هذه السنة وحمل إلى التربة التى له بالجرن الأصفر فدفن فيها وجلس للعزابه ولده أبا الحسن رحمه الله تعالى^(١).

(١) المصدر نفسه ، ورقة ٩٩ .